

وثقوب بصره، وطول معاناته، وعزمه أن تعود سنة الرسول ﷺ إلى الظهور من جديد في الأمة؛ لتكون موئل العلماء وطلاب العلم، ومربد العقول، ومزدهم العزائم، ودارة الحق والهدى.

لقد - والله - أذكر علم الشيخ بعلم السابقين، ولو كان في زمانهم لعرفوا له قدره.

ويكفي الشيخ نصرة من ربه، أن نصبه لنشر راية سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وكسر شوكة البدعة، والكشف عن زيوف دهاقنة العجم، وفضح خروج المعتزلة، والإبانة عن عورات أنصار العقائد الفاسدة، وجهالات سمان الإفك والضلالة.

ويكفي الشيخ نصرة من ربه، أنه إذا ذكر الكتاب والسنة؛ فقد أعلى الله في الأرض ذكره، وصيَّره أمينًا حافظًا لأسانيد الأخبار ومتون السنن، ومكَّنه من فقهها ما لم يمكن إلا للقلائل في عصره، وآتاه من علومها ما لم يؤت أحدًا.

* إمام العصر.. شيخ الفقهاء.. إمام أهل السنة.. الذاب عن عقيدة السلف فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله -:

ﷻ لله در الدكتور الزهراني وهو يشدو ببازيته في بعض فضائل سيدنا الشيخ ابن باز - رحمه الله -:

يا من رأى مثله أو من يضارعه	فليات بين الملا يزري بأقوالي
يا رائد العلم في هذا الزمان ويا	مجدد العصر في علم وأعمال
وحاتم في عطاياه وجودته	في بحر كم لا يساوي عشر مثقال
في الجود مدرسة، في البذل مملكة	في العلم نابغة، أستاذ أجيال

والذكر يطربه يحيا به سالي
 ما كان مجلسه للقليل والقال
 من فيض تقواه مخشوشن الحال
 لم يفتتن أبداً بالمنصب العالي
 والنفس خاشعة من خشية الوالي
 والشهد منطقته مستغذب حال
 رأت لك العين من ند وأمثال
 مضيئة من صناديد وأبطال
 أو البخاري في إسناده العالي
 كأنما مثلوا في شخصك الغالي
 أحب من خير أصناف العطايا لي
 يقول بعض أناس مسرف غال
 سبا فؤادي واستولى على بالي
 بازية الوجه زهرانية الشال
 وحيه رغم حساد وعدال
 إلى سماء الهوى فلترحموا حالي
 من مدح شيخ عظيم القدر مفضل
 أفدي سماحته بالنفس والمال
 فليس شيء على شيخ الهدى غالي
 تزري بمليون من أبصار أمثالي
 بنور خالقه من بعد أميال

الحق مذهبه، والنصح يعجبه
 العلم مؤنسه، واللّه يحرسه
 بالنص فتواه، بالرفق ممشاه
 لم ينتقص أحداً، لم يمتلئ حسداً
 العين دامعة، والكف ضارعة
 المال ينفقه، والوعد يصدقه
 يا درة العصر يا بحر العلوم فما
 حقاً فقد عرف التاريخ كوكبه
 مثل ابن حنبل أو مثل ابن تيمية
 لكننا يا حبيب القلب نبصرهم
 يا مشرق الوجه عيني حين تبصركم
 وقد ألام على هذا الثناء وقد
 يا لائمي لا تلمني لم سماحته
 دعني أتبه على الدنيا برائعة
 دعني فقد فتنت نفسي بروعته
 باز تصيد قلبي ثم طار به
 بئس البيان الذي لم يكتس حلاً
 لو ناب أمر معاذ اللّه أو خطر
 لو أن لي حيلة أهديته مقلي
 لكن عينيه في الميزان راجحة
 لم تبصر العين لكن الفؤاد يرى

أنت الكفيف ولكن أبصرت أم
 رفعت للعلم أبراجاً مشيدة
 كم قلعة للهدى والعلم شامخة
 مرت ثمانون عاماً كلها عمل
 وأنت لا زلت تمضي دوغماً ملل
 يا رائداً في ركاب النور متقدماً
 سر بارك الله في علم وفي عمل
 قم يا إمام الهدى حي القلوب بما
 قم يا ربيب التقى عطر مسامعنا
 قم وازرع الهمة العليا في أم
 وناد في أمة الإسلام إن لها

بفيض علم نقي منك سلسال
 تجلو صداه وتحيي رسمه البالي
 يطل منها سناكم خير إطلال
 ودعوة في شموخ دون إدلال
 في همة تبلغ الجوزا وإقبال
 تطيب فيه تراتيلي وأقوالي
 واللّه يرباك في حل وترحال
 آتاك مولاك من علم وأفضال
 فالكل في قريكم مستانس سال
 غاصت بأقدامها في عمق أوحال
 مجدداً تليداً مضى في دهرها الخالي^(١)

❏ وهذه أزاهير من بستان شيخنا ابن باز من كتاب الدكتور ناصر الزهراني في ترجمة الشيخ ابن باز المسماة «إمام العصر»:

أما عن سعة علمه وقوة حافظته فحدث عن ذلك ولا حرج، فهو العجب العجائب، وهبة الوهاب، كنت أقرأ على سماحته في درس العصر أو العشاء، فأخطئ في كلمة أو أخرم لفظة من الحديث فيوقفني الشيخ - ويقول: أعد. فإن أعدت الكلام تاماً صحيحاً سكت، وإن أعدته مع الخطأ بين لي الصواب، ولقد جلست إليه مع عدد من أهل العلم والمعرفة بالفقه والحديث، فيورد أحدهم أسئلة شائكة ومسائل دقيقة، أو يسأل عن صحة حديث أو متنه أو سنده فإذا بالجواب حاضر كأنما يقرأه الشيخ من كتاب.

(١) من قصيدة بازية الدهر من كتاب إمام العصر الإمام العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني (ص ١٩٥ - ١٩٦) - مؤسسة الجريسي.

تلد له القلوب وتستفيد
 لمنهله، وطاب لها الورود
 له الريحان أورك والورود
 هو الورقان.. والذر النضيد
 فمن عرف الإله هو السعيد
 لغايته، وجانبها كنود
 خصوم فيك، أو ريث شهود
 ولم يظفر بباطله مريد
 وتردع من يجور ومن يكيد
 فيعدل عن خصومته اللدود
 سراجاً، فهو من حكم وقيد
 أرحت وكان جانبَه الرقود
 تعلم ما يضر ما يفيد
 تبينت الضوابط والقيود
 دليلك - كلما سألوا - عتيد
 وسعي حفاتنا فينا وتيد
 رءوف ليس يرهقه الحسود
 خفيف ليس يثقله الرغيد
 ويعمى في الضحى البصر الحديد^(١)

وعلمك كان متصلاً عميماً
 تتابعت المواكب في اشتياق
 وأينعت الأطايب في عبير
 وأيسرت النفوس على ثراء
 وررفت السعادة في ابتهاج
 كذاك العلم إن خلصت قلوب
 ووليت القضاء فما استرابت
 ولم يعدم أخو حق نصيراً
 تقيم العدل والقسطاس فيهم
 وتفتح للمودة كل باب
 والفتيا أنرت بكل درب
 فكم من حائر أرشدت حتى
 وكم من جاهل علمت حتى
 وكم من سائل بصّرت حتى
 كذلك كنت في الفتيا بياناً
 وأحبيناك إذ تدعو وتحنو
 عفيفاً في المقالة ذا جنان
 عفيفاً في الحوائج ذا معاش
 بصيراً والبصيرة قد تُهدّي

□ يقول أحد تلاميذه وهو الدكتور أحمد الكبيسي: «كان يوم وداعه للجامعة بعد أن أسندت إليه رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، كان وداعاً مشهوداً، حزناً وأسى، بكاء ونحيباً، بكاء كبكاء الثكلى، ونحيباً كنحيب اليتامى، حيث فقدوا من يحنو عليهم كحنو الآباء على أبنائهم، فبيته كان بيتاً لمن لا بيت له، وماوى لمن لا ماوى له، يسعى في حل مشاكلهم، ويبذل وقته في توجيههم ونصحهم، ويفتح صدره وقلبه لاستقبالهم ومشاركته لهم في همومهم، وما ينزل بهم، فكانت الجامعة في عهده البيت الواسع، والمأوى والحب لعربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، فالكل يلهج بآبن باز، فقد أحبته القلوب، وتعلقت به النفوس وقد ربي أجيالاً وخرج أفواجاً من طلبة العلم، عمرت بهم المعمورة، وانتشروا في بقاع الأرض، ينشرون دين الله عقيدة وشرعية، وكان لهم بعد ذلك معيناً وناصرًا وداعماً ومؤيداً، مما جعله يتبوأ هذه المنزلة الغالية في بلاد المسلمين، ويكسبه هذه الشهرة المنقطعة النظير في زماننا المعاصر».

□ يقول أحد تلاميذ الشيخ - الشيخ فهد البكران - في مجلة الدعوة العدد (١٦٩٣): «قدم مندوب أحد المؤسسات الإلكترونية وبرفتهم جهاز حاسب آلي شخصي وقد تم تخزين كتب الحديث داخل هذا الجهاز، وأرادوا من سماحته الاطلاع عليه والاستئناس برأيه قبل نزوله للأسواق فقال سماحته: فلنختبر جهازكم، واختار سماحته - رحمه الله - أحد الأحاديث كعينة عشوائية لاختبار قدرة هذا الجهاز العجيب فقام المسئول عن تشغيل الجهاز بإدخال مفردات هذا الحديث للبحث عنه وتخرجه إلا أن الجهاز لم يستطع الوصول إلى المطلوب، وإن كان قد وصل لبعض الأحاديث التي تعطي نفس المعنى، فقال سماحته: «إذن ابحثوا عن راوي الحديث، فتم إدخال البيانات المعطاة باسم الراوي للبحث عن الحديث، ولكن لا نتيجة».

❑ فقال سماحته - رحمه الله -: إن ابن حجر لم يخطئ فعليكم البحث مرة أخرى، وبعد بحث ومحاولات استغرقت أكثر من ١٥ دقيقة بعدها توصل الإخوة مشغلو الجهاز إلى الحديث المطلوب وبالراوي نفسه حيث تبين أن خطأ في إدخال بيانات الراوي وتصحيحاً تعرض له اسمه جعل من الصعوبة الوصول إلى المطلوب».

وقصصه - رحمه الله - في هذا الميدان أعجب من العجب، وأشبه بالخيال، يقول الشيخ عطية محمد سالم في مقاله المدرج ضمن هذا الكتاب: «وذات مرة حصلت قضية من الشيخ أدهشت كل الحاضرين لإحدى المحاضرات الاجتماعية في الجامعة والتي حضرها سماحته وجاء المحاضر ليلقي محاضرتة ومعه سبورة وكتب عليها اسم المحاضرة والنقاط الخاصة بها والجزئيات المتعددة لهذه النقاط، ثم أخذ يشرحها مفصلة بجزئياتها في ساعة ونصف وبعد المحاضرة طلب من الشيخ ابن باز أن يعلق عليها فذكر سماحته نقاط المحاضرة الست وجزئياتها وعلق على كل نقطة بالتفصيل، ولم يترك شيئاً منها وهي كما ذكرت لك محاضرة اجتماعية وليست فقهية. واندesh الجميع من ذاكرة سماحته القوية وذكائه في استيعاب المحاضرة فلو أننا كنا موجودين لما استطعنا أن نعلق على أي نقطة دون النظر إلى السبورة وتذكر النقاط».

❑ ولعله من المناسب هنا أن نضيف كلاماً لأحد تلاميذ الشيخ وهو الدكتور عبدالله المجلي عن ناحية من نواحي العلم عند سماحته، وهي الفتوى ومنهجه فيها يقول: «الحديث عن موضوع الفتوى يتم عن طريق محاور كثيرة منها:

الأول: أن الشيخ - رحمه الله - يفتي الناس في كل وقت في بيته ومسجده وطريقه ومكتبه، فليس له وقت خاص بالفتوى.

الثاني: أن الشيخ يفتي عبر كل وسيلة: يفتي كتابة، ويفتي مشافهة، ويفتي عبر الصحف والمجلات وعبر الإذاعة، وكان من آخر ما وافق عليه الصحف والمجلات وعبر الإذاعة، وكان من آخر ما وافق عليه ارتباطه بالناس بواسطة الإنترنت - رحمه الله - والبقية موزعة على أصحاب الفضيلة الآخرين المفتين فيه.

الثالث: أن الشيخ - رحمه الله - يفتي في جميع مجالات الحياة وفروع العلم الشرعي المتنوعة في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك وغير ذلك.

الرابع: تتميز فتوى الشيخ - رحمه الله - بالإيجاز غير المخل وسهولة عبارتها ودقتها.

الخامس: لا تخلو فتوى من فتاويه - رحمه الله - من الدليل الشرعي من الكتاب والسنة وقلمما يتطرق إلى خلاف العلماء وبخاصة في الفتاوى الموجهة للعامة.

السادس: قد جعل الله تعالى لفتاوى سماحته القبول عند الناس كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم في داخل المملكة وخارجها.

ولذلك تسمع دائماً سؤال الناس عن رأي الشيخ ابن باز في هذه المسألة أو تلك، وإذا ذكرت لأحد - إلا ما ندر جداً - فتوى للشيخ أو قول أو رأي لا يتردد في القبول به والتسليم.

فقوله معتمد ورأيه مقدم وفتواه مقبولة دون مراجعة، وهذا من فضل الله وحده عليه ومن نعمه عليه والأسباب في ذلك ظاهرة جليلة.

❏ ويقول الشيخ عايض بن فدغوش الحارثي: «إن الشيخ ابن باز - رحمة الله عليه - على منهج السلف الصالح - كما هو معروف - لا يفتي إلا

بدليل من الكتاب والسنة أو الإجماع أو أقوال الصحابة أو القياس، ونحو ذلك من الأدلة الشرعية، وإذا لم يعلم قال: لا أدري، الله أعلم، أو قال: سأبحث المسألة، وهو مجتهد في المذهب الحنبلي، ولكنه يتبع الدليل ويرجع إلى الحق، ولا يتمسك بالمشهور في المذهب الحنبلي إذا رأى أنه قول مرجوح، وظهر له الدليل مع رأي آخر في المذهب أو غيره.

وهو أيضاً ليس نسخة من شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا من شيخه سماحة الشيخ ابن إبراهيم رحمة الله على الجميع.

١ - فهو يرى أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقاً سواء كان بشهوة أو بغير شهوة؛ لأن النبي ﷺ قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ، خلافاً للمشهور في المذهب.

٢ - وهو يرى أنه إذا جاء المسبوق، والناس في التشهد الأخير فإنه يدخل معهم ولا ينتظر جماعة أخرى، ولو كان يرجوها، هذا هو الأفضل، لقوله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فأنوها وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»، ولقوله ﷺ: «إذا أتيتم والإمام على حال فاصنعوا كما يصنع الإمام»، خلافاً لشيخه «ابن إبراهيم».

٣ - وهو يرى عدم صحة صلاة المنفرد خلف الصف مطلقاً، سواء عجز عن المصافة أو لم يعجز، وفاقاً للمشهور عند الحنابلة، وخلافاً لشيخه ولابن تيمية؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»؛ ولأنه ﷺ أمر من صلى خلف الصف وحده أن يعيد الصلاة ولم يسأله هل وجد فرجة أم لا؟

٤ - وهو يرى أن المغمى عليه لا يقضي الصلاة إلا إذا كان إغماءه أقل من ثلاثة أيام، خلافاً للمشهور عند الحنابلة؛ لأن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أصيبوا ببعض الإغماء لمدة أقل من ثلاثة أيام فقصوا وقياساً على النوم، فإن من نام عن صلاة أو نسيها صلاها متى ذكرها، وأما إن كانت المدة أكثر من

ذلك فلا قضاء على المغمى عليه؛ لأنه يشبه المجنون بجامع زوال العقل.

٥ - وهو يرى أنه إذا أقيمت الصلاة فإن المصلي يقطع النافلة، ولو شرع فيها ما لم يأت بالركعة الثانية، فإن أتى بها أتمها خفيفة، وإلا فإنه يقطعها خلافاً للمشهور عند الجنبلة، ولشيخه ابن إبراهيم، لقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»؛ ولأنه ﷺ قال هذا الكلام لما رأى رجلاً يصلي والمؤذن يقيم الصلاة، فإن أتى بالركعة الثانية أتمها خفيفة؛ لأن الصلاة قد انتهت، ولم يبق منها إلا أقل من ركعة.

٦ - وهو يرى وجوب قراءة الفاتحة على المأموم، ولو في الصلاة الجهرية خلافاً للمشهور من المذهب ولشيخه ولشيخ الإسلام، لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، ولقوله ﷺ: «لعلكم تقرأون خلف إمامكم؟» قلنا: نعم، قال: «لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»، والمشروع أن يقرأ بها في سكتات الإمام، فإن لم يكن له سكتة قرأ بها ولو كان الإمام يقرأ ثم أنصت.

٧ - وهو يرى أنه إذا طهرت المرأة من الحيض أو النفاس في وقت العصر وجب عليها أن تصلي الظهر والعصر جميعاً، وإذا طهرت وقت العشاء وجب عليها أن تصلي المغرب والعشاء جميعاً، وفاقاً للمشهور عند الجنبلة؛ لأن وقتها واحد في حق المعذور كالمريض والمسافر، وهي معذورة بسبب تأخر طهرها، وقد أفتى بذلك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

٨ - وهو يرى أن المسافر إذا نوى الإقامة في بلد أكثر من أربعة أيام، فإنه لا يترخص برخص السفر، وفاقاً للمشهور في المذهب ولشيخه، وخلافاً لابن تيمية؛ لأن الأصل في حق المقيم هو الإتمام، وإنما شرع له القصر إذا باشر السفر، وقد ثبت عن النبي ﷺ: «أنه أقام في حجة الوداع أربعة أيام يقصر الصلاة، ثم ارتحل إلى منى وعرفات» فدل ذلك على جواز القصر لمن

عزم على الإقامة أربعة أيام أو أقل، أما إقامته ﷺ تسعة عشر يوماً عام الفتح، وعشرين يوماً في تبوك، وهو يقصر الصلاة فقد حملها جمهور أهل العلم على أنه لم يزمع الإقامة، وإنما أقام بسبب لا يدري متى يزول.

٩ - وهو يرى مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في الشاهد الأول في الثلاثية والرباعية، وفاقاً للشافعي وخلاقاً للمذهب ولشيخه.

١٠ - وهو يرى استحباب جلسة الاستراحة في الصلاة وفاقاً للشافعي وخلاقاً للمذهب ولشيخه، لحديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا كان في الركعة الأولى والثالثة لم ينهض حتى يستوي قاعداً».

١١ - وهو يرى انعقاد الجمعة بثلاثة: الإمام واثنين معه وفاقاً لابن تيمية وخلاقاً للمشهور عن الحنابلة الذين اشترطوا الأربعين، وخلاقاً لشيخه، فإن شيخه لم يرخص للثمانية في إقامتها، بل نص على أنه إذا اجتمع عدد كثير، وإن نقصوا عن الأربعين فإنهم يقيمونها جمعة وحجة الشيخ ابن باز قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فاسعوا: صيغة جمع، وأقل الجمع ثلاثة، ولقوله ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم»، وهو عام في الجمعة والجماعة، والحديث الوارد في اشتراط الأربعين ضعيف.

١٢ - وهو يرى أن الحلي فيه الزكاة مطلقاً، ولو كان يلبس أو يعار خلاقاً للمشهور في المذهب ولشيخه ولابن تيمية، لعموم الأدلة الدالة على وجوب الزكاة، ولحديث عبدالله بن عمرو رضى الله عنه: «أن امرأة دخلت على النبي ﷺ وفي يد ابنتها مسكتان من ذهب فقال: «أعطين زكاة هذا؟» فقالت: لا، قال: «أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار»، فالتفتها وقالت: هما لله ورسوله، ولحديث أم سلمة رضى الله عنها: «أنها كانت تلبس أوصاحاً من ذهب فقالت: يا رسول الله أكثر هو؟ فقال ﷺ: «ما بلغ أن يزكى

فزكي فليس بكنز»، ولم يقل لها: ليس في الحلبي زكاة وما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس في الحلبي زكاة» فهو ضعيف.

١٣ - وهو يرى جواز رمي الجمرات ليلاً، خلافاً للمشهور عند الحنابلة ولشيخه.

١٤ - وهو يرى أن الطلاق بالثلاث بلفظ واحد يعتبر طلاقاً واحدة، وفقاً لابن تيمية، وخلافاً للمشهور من المذهب ولشيخه.

١٥ - وهو يرى أن الطلاق بالثلاث إذا كان بالفاظ متفرقة فهو ثلاث إذا لم يرد تأكيداً وتفهماً، وفقاً للمشهور من المذهب ولشيخه، وخلافاً لابن تيمية.

١٦ - وهو يرى أن الطلاق البدعي لا يقع وفقاً لابن تيمية وخلافاً للمشهور من المذهب ولشيخه، والطلاق البدعي: هو الطلاق في الحيض أو في النفاس أو في طهر جامعها فيه إذا لم تكن حاملاً ولا من الآيات من المحيض.

وبالجملة فالشيخ ابن باز - رحمه الله - موفق في فتواه، ملهم في جوابه، مسدد في رأيه، ترى نور الكتاب والسنة من خلال ما يفتي به، فهو في المسائل المتقدمة وغيرها أخذ بما ظهر له من الدليل، وليس بالهوى أو التقليد، بل بما أداه إليه اجتهاده، وهو في ذلك أهل للاجتهاد، والمجتهد بين أجرين إن أصاب، أو أجر إن أخطأ على اجتهاده، وخطؤه مغفور، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، والشيخ - رحمه الله - لا يتسرع في الفتوى، وإذا أفتاك وضع النقاط على الحروف، مختصراً فتواه، مستدلاً لها من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة.

وكثيراً ما كان يجعل الفتوى مشتركة بالتشاور مع إخوانه العلماء في هيئة كبار العلماء، أو لجنة الإفتاء.

وسماحته - رحمه الله - ربما أجاب السائل بأكثر مما سأل عنه إذا كان له علاقة بسؤاله اقتداء بالنبي ﷺ لما سئل عن الوضوء بماء البحر قال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته».

وكان لا يجيب حتى يفهم السؤال، فإذا أشكل عليه السؤال قال: أعد، وكان يرجع عن الفتوى إذا ظهر له أن الدليل على خلافها.

□ ويقول سماحة الشيخ - رحمه الله - عن نفسه: «مذهبي في الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - وليس على سبيل التقليد، ولكن على سبيل الاتباع في الأصول التي سار عليها، أما في مسائل الخلاف فمنهجي فيها هو ترجيح ما يقضي الدليل ترجيحه، والفتوى بذلك، سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه؛ لأن الحق أحق بالاتباع، وقد قال الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾».

□ أما عن منهج سماحته في التعامل مع المخالفين، فيقول الدكتور عبدالله بن عبدالعزيز الزايدى: «تميز الشيخ - رحمه الله - بالتزام منهج سلف الأمة الصالح في فهم الدين والعمل به، ذلك المنهج السلفي الذي يجمع بين العلم والعمل والاعتدال والرفق».

فكان - رحمه الله - يزن الناس بميزان الحق ويتعامل معهم بالرفق فهو لا يترك التشبيه على المخطئ كي لا يتمادى في كبريائه وخطئه. والمخالف للحق قسمان:

١ - قسم يخالف مخالفة صريحة للكتاب أو السنة أو الإجماع فهذا القسم مع خطئه الكبير نجد الشيخ - رحمه الله - يرد عليه بأسلوب رفيع مع بيان الأدلة وبعبارات تنم عن عظيم خلق كقوله: هذاه الله، عفا الله عنه.

٢ - قسم خالف في مسألة من مسائل الاجتهاد فهذا لا يرد عليه الشيخ وإنما يذكر القول الذي يرى رجحانه ويضعف أدلة القول الآخر - إن وجدت - ولا يأتي الشيخ بأي عبارة فيها تعنيف أو تشنيع وكان - رحمه الله - لا يتساهل في مسائل الابتداع والشرك بل يبين ما هو بدعة وما هو شرك لكنه - رحمه الله - لم يكن متساهلاً بإطلاق عبارات الشرك أو البدعة على كل صغيرة أو كبيرة بل إنه لينبه على الصغيرة والكبيرة ويضع كل شيء موضعه ومن أحدث ما سمعت منه - رحمه الله - جواب لسؤال حول الاستعاذة من الشيطان عقيب التأثب هل هي من البدع حيث لم يرد نص عن النبي ﷺ في مشروعيتها ذلك وسنيته.. فأجاب الشيخ بأن المشروع هو وضع اليد على الفم عند التأثب أو كظمه ولم ترد الاستعاذة، لكن من استعاذ متذكراً أن التأثب من الشيطان فلا يعد فاعلاً لبدعة.

□ وكان الشيخ - رحمه الله - في موقفه من الاتجاهات والجماعات الإسلامية المعاصرة مثال القائم بالحق الملتزم به عند الاختلاف والفتن حيث كان ينصح من خالف الحق ويدعو بالهداية ويبين بعض الجوانب الإيجابية لدى هذه الاتجاهات ويشجعها، ويدعو لتوجيهها الوجهة المناسبة، ويؤكد على تلك الاتجاهات بضرورة سلوك منهج السلف في فهم الدين والعمل به.

□ كما كانت علاقته ببعض قيادات تلك الجماعات صلة التناصح والمحبة في الله فكان يوجه لهم الخطابات التي يوضح فيها وجهة نظره فيما يراه خطأ وقع فيه بعضهم وكان أسلوبه في النصيحة غاية في الرفق والرغبة في إيضاح الحق للمخالف، ولم يكن يلجأ - رحمه الله - للتحذير العام إلا في حالات قليلة من أهمها الحالات التي ينتشر فيها الخطأ بين الناس، مثل الكتابات الصحفية التي تتضمن خطأ ظاهراً يناقض أصول الدين أو فروعه فإنه ينشر التحذير والتنبيه في الصحيفة نفسها أو في صحيفة أخرى أو في

مجلة البحوث الإسلامية ومن أمثلة ذلك: رده - رحمه الله - على خبر عن إقامة صلاة الجمعة بمسجد قرطبة في أسبانيا نشرته جريدة عكاظ وعلقت الصحيفة على الخبر بالقول إن الاحتفال بذلك يعد تأكيداً لعلاقات الأخوة والمحبة بين أبناء الديانتين الإسلامية والمسيحية.. فقد نبه - رحمه الله - إلى مصادمة هذا الكلام والأدلة الشرعية الدالة على أنه لا أخوة ولا محبة بين المسلمين والكافرين.

كما بين - رحمه الله - خطأ عدد من الشعراء الذين نشروا قصائدهم في بعض الصحف السعودية وتضمنت غلواً في حق النبي ﷺ فقد نبه الشيخ - رحمه الله - إلى ذلك وذكر اسم الشاعر ودعا له بالهداية والصلاح.

□ ويقول الشيخ محمد سليمان الصبيحي عن منهج الشيخ العلمي: «ومن أبرز ما تميز به منهجه العلمي مما ندعو به إخواننا إلى الاستفادة منه ما ملخصه:

١ - أرسى منهج الأخذ بالدليل الشرعي خلافاً لقول المذهب - إذا لم يدل عليه دليل.

٢ - بعد النظر والعالمية في الهموم والتعامل مع كل المسلمين.

٣ - الجمع بين العلم والدعوة فإذا أفتى قرن فتواه بنصيحة.

٤ - استثمار ذاكرته فيما ينفع وفي التعرف على هموم المسلمين والمشاركة في التخفيف عنهم ومتابعة أخبارهم.

٥ - بعد نظره في معرفة مرامي السائلين والمستفتين فيجيبهم بحيلة وحذر بما لا يعطي فرصة للنقل الخاطئ أو الادعاء الكاذب.

٦ - الرفق بحال المخالفين وحتى الخصوم والمعادين.

٧ - النشاط الدائم والعمل الدؤوب فهو لا يعرف الراحة أبداً فقد بذل وقته في محاضرات وندوات ودروس ورد على الهاتف وإجابة للسائلين

واستضافة للقادم ومسامرة للأهل وعبادة وقيام ليل».

□ ويقول الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان - عضو هيئة كبار العلماء -:
«يتأني - رحمه الله - في الأحكام، يعطي الفرصة الكافية لكل صاحب رأي أن يعرضه ويقرره دون تضيق أو مضايقة، يد الوقت أكثر فأكثر مداولة ونقاشاً حتى يتمخض المجلس عن رأي سديد يحقق المصلحة. ولا يطمئن حتى لا يبغي للمداولة والنقاش مجال وهو في أثناء ذلك وقبل ذلك وبعده، يذكر نفسه وأعضاء المجلس في صوت متهدج ممتلئ خوفاً ورهبة من المولى عز وجل. يذكر بمراقبته تعالى والإخلاص والتجرد والنصح للعامة وولاية الأمر، ومن ثم الدعاء بالصالح والرجوع إلى الله - عز وجل - لا يفتأ يكرر هذا بداية وانتهاء».

* علامة الجزيرة وفقيد الأمة .. الشيخ عبدالعزيز بن باز:

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور: يوسف القرضاوي:

ودعت الأمة الإسلامية علماً من أعلامها الأفاضل، ونجماً من نجومها الساطعة في سماء العلم، علامة الجزيرة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، الذي كان جبلاً من جبال العلم، وبحراً من بحور الفقه، وإماماً من أئمة الهدى، ولساناً من السنة التوحيد، وعماداً من أعمدة الدين وزكناً من أركان الأمة، طالما استفاد من علمه المسلمون في الجزيرة والخليج وفي شتى بقاع الأرض، عن طريق اللقاء والمشافهة، أو الكتاب والمراسلة، أو الهواتف والإذاعة، أو الكتابة والصحافة، أو الرسائل والكتب، أو الشريط المسموع.

□ عاش الشيخ عمره المبارك للعلم والدين، يعلم ويدرس، ويجب ويفتي، وينصح ويدعو، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مع حكمة بالغة ورفق وبصيرة، فإنه الله يحب الرفق في الأمر كله، وما دخل الرفق في شيء

إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه .

❑ كان أكبر هم الشيخ الدعوة إلى التوحيد الخالص، وتصفية العقيدة من الشرك أكبره وأصغره، جليه وخفيه، والوقوف في وجه القبوريين والخرافيين، واتباع ما جاء عن السلف في وصفه الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وكان لا يدع فرصة ولا مناسبة إلا أكد فيها هذه المعاني، لا يمالئ ولا يجامل .

❑ وكان الشيخ في الفقه حنبلياً، ولكنه لم يكن مقلداً يأخذ القول في مذهبه ولو كان ضعيف الحجة، بل كان - رحمه الله - يعتمد الدليل ويستند إلى الكتاب والسنة، ويعرض عن مذهبه إذا كان الحق مع غيره، لا يخشى لومة لائم، وقد كان فوق أن يلومه أحد، ولذا رأيناه يكتبني بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية في الطلاق، وإن كان علماء المملكة لا يفتون بها، وإنما يأخذون بالمعتمد في المذهب .

❑ كان الشيخ يرأس إدارة الفتوى والبحوث والدعوة، ويرأس هيئة كبار العلماء، ويرأس المجلس التأسيسي لرابطة العلم الإسلامي، ويرأس المجلس العالمي الأعلى للمساجد، ويرأس مجلس المجمع الفقهي للرابطة وظل سنين رئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فلم يضعه ذلك في برج عاجي أو في صومعه منعزلة، بل ظل بيته مفتوحاً، ومكتبه مفتوحاً وقلبه مفتوحاً لكل ذي حاجة من أبناء المسلمين، مادية أو علمية، لا يغلق بابه في وجه أحد ولا يضيق صدره بلقاء أحد، ولا يدخر جهده في مساعدة أحد .

❑ لم يكن العلم الغزير وحده الذي ميز ابن باز، بل ميزه كذلك قوة إيمانه، وغيرته على دينه، واهتمامه بأمر أمته، وتحرقه على مآسي المسلمين وحسن خلقه في معاملة الناس، ورحمته بالصغير، وتوقيره للكبير، ومعرفته

بحق أهل العلم من إخوانه وإن اختلفوا معه .

❏ اتصل جبل الود بيني وبين العلامة ابن باز في مناسبات كثيرة، في مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي، وفي المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنور، وكنت عضواً فيه، وكان الشيخ نائباً لرئيسه إذ كان رئيسه هو ولي عهد المملكة الأمير فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله - في ذلك الوقت، وفي مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي الذي أشرف بعضويته ويرأسه الشيخ، وفي المؤتمرات العلمية والدعوية العالمية التي أقيمت في المملكة، مثل المؤتمر العالمي للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، والمؤتمر العالمي للدعوة والدعاة في المدينة المنورة، ومؤتمر مكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين في المدينة المنورة أيضاً.

❏ أبى الشيخ على نفسه أن يغادر المملكة، وكم دُعي من أقطار وجهات شتى، ولكنه اعتذر، وعندما أقيم المؤتمر العالمي للسنّة والسيرة في دولة قطر في افتتاح القرن الخامس عشر الهجري وجهنا إليه الدعوة وألحنا عليه، ولكنه قال: إنه كان يود الاستجابة للدعوة، ولكن هذا سيفتح عليه أبواباً لا يستطيع سدها، وأصر على موقفه ونهجه في الاعتذار.

❏ لم أر مثل الشيخ ابن باز في وده وحفاوته بإخوانه من أهل العلم، ولا في حبه وإكرامه لأبنائه من طلبة العلم، ولا في لطفه ورفقه بطلابي الحاجات من أبناء وطنه، أو أبناء المسلمين عموماً، فقد كان من أحاسن الناس أخلاقاً، الموطنين أكتافاً الذي يألون ويؤلفون.

ولقد رأيته في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها، ما يوافقه منها وما يخالفه ويتلقاها جميعاً باهتمام، ويعلق بأدب جم، ويعارض ما يعارض منها برفق وسماحة دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدباً بأدب النبوة، ومتخلقاً بأخلاق القرآن.

❑ لا أعرف أحداً يكره الشيخ ابن باز من أبناء الإسلام، إلا أن يكون مدخولاً في دينه أو مطعوناً في عقيدته، أو ملبوساً عليه، فقد كان الرجل من الصادقين الذي يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيصدقون، أحسبه كذلك واللّه حسيبه، ولا أركيه على الله تعالى.

❑ الحديث عن العلامة ابن باز ذو شجون، ومجال القول ذو سعة، ولا نستطيع أن نوفّي الشيخ ما يستحقّه في هذه العجالة، إنما هي كلمات كتبها على عجل أودع بها الشيخ الجليل، وفاءً لبعض حقّه، ومعرفةً بقدره وتقديرًا لمكانته وفضله.

❑ إن موت العلماء الأفاضل مصيبة كبيرة، فإن الأمة تفقد بفقدهم الدليل الذي يهدي، والنور الذي يضيء الطريق، يقول علي - كرم الله وجهه -: إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه.

❑ وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما قبض الله عالماً إلا كان ثغرة في الإسلام لا تسد، يؤكد هذا حديث عبدالله بن عمرو المتفق عليه: «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً من صدور الناس، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهّالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(١).

* لماذا كان أمة وحدة؟

والدعوى ما لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء
❑ خلاصة الأمر عن هذا الإمام - رحمه الله - أنه: «كان أمة وحده».
إنها ليست عواطف مجردة عن الحقائق، وليست ادعاءات خالية من البراهين

إنها الإمامة في أبهى مظاهرها، والعظمة في أجمل مناظرها.

□ قل لي بربك هل تحتاج الشمس الساطعة إلى دليل، وهل يفتقد البدر المنير إلى شهود، إن صفات هذا العالم ومناقبه شمس أشرقت على الدنيا. ونجوم تألقت في سماء الكون، وإن مكارمه وفضائله وعلمه، بدور مزهرة في الأفق الواسع.

كيف يطوي كون المعالي ضريح
من نُعزِّي..؟ سيل الفجيعة طام
والمعالي لا يحتويها مكان؟
أنت حيٌّ في كل ذرة رمل
كل قلب يجتاحه طوفان؟
فكتاب الخلود سفر مضيء
من بلاد ما مراك النسيان
وإلى رحمة وطيب مقام
أنت فيه الختام والعنوان
في جنان ترابها زعفران
□ لك أن تتأمل تأملاً سريعاً بعض المعالم البارزة في هذا العمر المديد
والزمن المبارك، هذه المعالم التي ستبقى شاهد صدق وعدل على مدى التاريخ:

* نور الإيمان:

□ كَفَّ بصره بعد أن كان ينعم بنوره، ويسعد بضياؤه، فلم ينطو على نفسه، يتحسر على بصره أو يبكي حظه، بل ازداد نوراً إلى نوره وبصراً إلى بصره، وهمة إلى همته.

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي فؤادي وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف ماثور

□ وكان حكمة الله تعالى اقتضت أن يتمحض هذا القلب المؤمن الخاضع الصادق يتمحض له وحده سبحانه، فإن العين رسول القلب، ولو ترك هذا الرسول يتعامل مع أشياء الحياة الدنيا ومباهجها، فلربما يحدث

تشويشاً على قلب امتلاً بجلال الله، وفاض بحبه والإيمان به، فلا داعي إذن لهذا البصر، تنزع ملكيته، ويعوض صاحبه بنور في قلبه يملأ حياته أنساً وسروراً وإيماناً و يقيناً، فلا يرى إلا نور خالقه، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وانظر لباز التقى والعلم تبصره
عبدالعزیز الذی تهفو النفوس له
بدون عينين قد أربى على البشر
وتشتري نظرة في وجهه النظر
كالبحر في علمه السامي وذو خلق
كالمسك كالعنبر الفواح كالزهر

□ انطلق الشيخ في حياته بهمة تتحدى الصعاب، وإيمان يعانق السحاب فهو يحفظ القرآن فلما أتم حفظه، ووعاه بقلبه، يتم بوجهه شطر السنة المباركة في نهم شديد، يحفظ متونها، ويدرس أسانيدها، ويدرس العربية والفرائض والفقه والتفسير، بدأت مخايل النبوغ والولاية والكرم من وقت مبكر في حياته، كان يلمسها فيه من رافقه في طلب العلم وتحصيل المعرفة.

وعيرني الأعداء والعيب فيهمو
إذا أبصر المرء المروءة والتقى
فليس بعار أن يقال ضرير
فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً، وذخراً وعصمة
وإني إلى تلك الثلاث فقير

* القاضي المعلم:

□ تبدأ حياته بالقضاء فيمكث فيه أربعة عشر عاماً، لم يكن قاضياً يؤدي دوامه الرسمي، يقبض راتبه آخر الشهر، فيصرفه على نفسه وأهله، وانتهت مهمته بذلك، بل كان القاضي، والمعلم، والمربي، والإمام،

والمرشد، والمصلح، والكريم، محكمته بيته، وبيته محكمته ذاع صيته، ولمع اسمه، وتسابق إليه طلاب العلم، ينهلون من علم هذا الشاب المبارك المتدفق حيويةً وعلمًا ونشاطًا، والمتوقد ذكاءً وعبقريّةً وسناءً، وهكذا سالت أوديةً بقدرها من العلم والخير والدعوة إلى الله تعالى.

* مخايل الذكاء:

□ ثم حينما أدرك أهل العلم والفضل أن بين ظهرائهم كنزاً عظيماً، وغنيمة باردة، وسراجاً مزهراً، ونوراً متلألاً، وغيثاً هنيئاً، قرروا أن يعم الجميع خيره، ويُنشر لطلبة العلم علمه، فنُقِلَ إلى المعاهد العلمية بمدينة الرياض، ثم كلية الشريعة، ودرّس الفقه، والتوحيد، والحديث، واتصل هذا العطاء المبارك ما يقارب عشر سنوات (١٣٧١ - ١٣٨٠هـ)، كانت زاخرة بالعطاء المتألق، والعلوم المتدفقة، وتعددت قنوات هذا النهر الزاخر إلى كثير من البقاع والأراضي الهامدة، فذهبت غبرتها، ورويت تربتها، فاهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج.

* من المحلية إلى العالمية:

□ ثم عين نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وامتد عطاؤه الدءوب لمدة تسع سنوات (١٣٨١ - ١٣٩٠هـ).

فلما بلغ القمة في العلم والحلم والفضل والتقوى، وتوجهت الأنظار إليه، وتطلعت النفوس إليه، وأضحى ملء السمع والبصر، أسندت إليه رئاسة الجامعة الإسلامية، فلم يمكث في هذا المنصب إلا خمس سنوات ولكنها تعدل خمسين عاماً، وقد كان جهد الشيخ وعلمه وفضله فيما مضى من عمره قبل هذا المنصب، كان جهداً محلياً إلى حد كبير، أما الآن فقد انداحت دائرة هذا الجهد المبارك، والعطاء المميز لتشمل العالم الإسلامي كله، ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾، ففتح أبواب الجامعة لأبناء المسلمين من أنحاء

الدنيا، فنهلوا من علمه، ونهلوا من علم الجامعة التي حوت أفاضل العلماء، وأساطين الدعاة، ولقد كان الشيخ - رحمه الله - على عادته في بذل كامل وقته وجهده وماله للمسلمين، كان جامعة متنقلة اسمع ما يقوله أحد الطلاب الذين تخرجوا على يديه من تلك الجامعة، يقول: «ولذلك كان يوم وداعه للجامعة بعد أن أسندت إليه رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، كان وداعاً مشهوداً حزناً وأسى، بكاءً ونحيباً، بكاءً كبكاء الشكلى، ونحيباً كنحيب اليتامى، حيث فقدوا من يحنو عليهم كحنو الآباء على أبنائهم، فبينته كان بيتاً لمن لا بيت له، وماوى لمن لا ماوى له، يسعى في حل مشاكلهم، ويبذل وقته في توجيههم ونصحهم ويفتح صدره وقلبه لاستقبالهم ومشاركته لهم في همومهم، وما ينزل بهم فكانت الجامعة في عهده البيت الواسع، والمأوى الرحب لعربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم، فالكل يلهج بآبن باز، فقد أحبت القلوب، وتعلقت به النفوس، وقد ربى أجيالاً وخرج أفواجاً من طلبة العلم، عُمّرت بهم المعمورة، وانتشروا في بقاع الأرض، ينشرون دين الله عقيدة وشريعة، وكان لهم بعد ذلك معيّنًا وناصرًا وداعمًا ومؤيدًا مما جعله يتبوأ هذه المنزلة الغالية في بلاد المسلمين، ويكسبه هذه الشهرة المنقطعة النظير في زماننا المعاصر» اهـ.

* إمام العلماء :

□ انتقل الشيخ الأجل - رحمه الله - ليكون على رأس هرم العلم والمعرفة، وعلى قمة عَلم الفكر والهدى، ويصدر الأمر الملكي بتعيينه في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير»، وبإذن الله كم فتح الله على يديه في هذا المنصب من أبواب الخير، وكم يسر من سبل الهدى، ومهد من طرق المعرفة، وبث من نور العلم، ما ظنك برجل قلبه ونفسه وحبّه وهوى نفسه وسلوة روحه وقرّة عينه: الدعوة

إلى الله، وتعليم الناس الخير؟ ما ظنك به إذا أصبح زمام الأمور بيده، والناس تصدر عن رأيه. جَنَّدَ كل ما لديه من طاقات، وبذل الغالي من الأموال والأوقات، اختار العلماء الناصحين، ومكَّن للدعاة الصادقين، وحث الجميع على العمل، وشجعهم على الدعوة، وشَدَّ من أزرهم، ورفع من قدرهم، وضرب لهم المثل الأعلى بنفسه، فما كان يدعوهم إلى أمر إلا وهو أسبقهم إليه ولا يحضهم على شيء إلا وقد تمثل فيه فازدهرت الأرض بالعلم، وآتت الجهود ثمارها، فشهدت البلاد علماً ونوراً وصلاًحاً ودعوة ودروساً، حتى أصبحت مجالس الناس ومنتدياتهم وحفلاتهم ولقاءاتهم ومدارسهم وأنديتهم ودوائرهم، بل ومطاراتهم وقطاراتهم وسياراتهم، أصبحت جميعاً تعج بالعلم وأهله، وتعمر بالخير وذويه، وتعطر بالقرآن ومعانيه، وتُنَوِّرُ بالإسلام ومراميه، وقد وجد من الحكومة ما يشد من أزره، ويقوي من مكانته، ويسمع لرأيه، ويستجيب لندائه، ولم يكن هذا الجهد المبارك، والخير العميم، حكرًا على هذه البلاد بل امتد ليشمل أنحاء الدنيا، فاهتم الشيخ - رحمه الله - بالدعوة إلى الله وتنوير المسلمين، والشد من أزرهم، والوقوف ضد التيارات التي تريد اجتثاثهم، فجند جنوداً، وأقام مراكز، وأرسل دعاة وجهز هداةً لأغلب بلدان العالم. كانوا يستيرون برأيه، ويمضون بتوجيهه، وإذا بالجماعات الإسلامية، والمراكز الدينية في أنحاء الدنيا إذا ما أشكل عليها شيء من الدين، أو خفي عليها باب من العلم، لجأت - بعد الله - إلى سماحة الشيخ ابن باز - رحمه الله - فإذا قال فالمعتمد لديهم قوله، وإن أفتى فالفتوى محبوبة مقبولة، وأي لجنة تنشأ أو جماعة تقوم، أو مشروع يقترح من العالم فإن الأساس لنجاحه وفلاحه بعد الله تعالى أن يحظى بتزكية من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله -، فتُجْعَلُ تاج المشروع ووجهه وروحه.

❏ ولقد كنت أرى من محبة الشيخ - رحمه الله - من أبناء العالم

الإسلامي ما يسر النفس، ويسعد الخاطر، كنت أراهم في الحج، وفي رمضان، حينما يكون سماحته في مكة تجد سيارات الأجرة ذاهبة آية بالذين يأتون من أنحاء العالم، فيقبلون في رغبة جامحة لرؤية ابن باز والسلام عليه، والنهل من علمه، وسؤاله عما يشكل عليهم، تغص الشوارع، ويكتظ الحي، ويمتلئ مجلسه بهؤلاء المسلمين من أنحاء الدنيا، وكنت حينما أقرأ الأسئلة على سماحته في مسجده بمكة أجد أمراً عجباً، هذا السائل يسأل: يا سماحة الوالد أنا ابنكم من أمريكا وأسأل عن كذا، وثان: يا سماحة نحن من مسلمي فرنسا، ولدينا كذا وكذا، فكيف نتعامل مع ذلك، وثالث: يا سماحة الشيخ أنا قادم من جزر القمر، وأريد أن تدعوا لي...، ورابع: يا سماحة الشيخ نحن من أبنائكم المسلمين من ألمانيا، أو بريطانيا، أو الصين... إلخ، وهكذا تجد هذه الأسئلة العالمية التي تنبثك بعالمية هذا الإمام، وسعة علمه، ورفعة شأنه في أنحاء الدنيا.

❑ ولقد استمر دعم سماحته للدعوة والدعاة في أنحاء العالم إلى وفاته - رحمه الله - حيث توفي ولا زال تحت رعايته أكثر من ألفي داعية حول العالم، تصرف مرتباتهم عن طريق سماحته.

❑ مضى شيخنا - رحمه الله - في هذا المنصب منذ عام ١٣٩٥هـ إلى عام ١٤١٤هـ، حيث صدر الأمر الملكي بإنشاء وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وصدر الأمر بتعيين سماحته - رحمه الله - مفتياً عاماً للمملكة ورئيساً لهيئة كبار العلماء، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفاه الله عز وجل في فجر الخميس السادس والعشرين من شهر محرم لعام ١٤١٤هـ وأربعمئة وألف من الهجرة بمدينة الطائف، وصلي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الجمعة، ودفن بمقبرة العدل بمكة المكرمة - رحمه الله رحمة واسعة - هذه المناصب الرئيسية في حياة الشيخ.

* المناصب الشامخة:

□ ولكن مع هذه المناصب الشامخة، ومع هذا الكم الهائل من البذل والتضحية، لم يكن ذلك هو كل ما في حياة إمامنا - رحمه الله - بل كان يجمع إلى ذلك رئاسة عددٍ من المناصب، كل منها يتطلب رجالاً عدَّة لإدارته، والقيام به، ومع ذلك فقد قام على رئاستها جميعاً إلى جانب نهجه العامر المعهود في حياته طيلة ليله ونهاره، كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي - وفقه الله -: «كان الشيخ يرأس إدارة الفتوى والبحوث والدعوة، ويرأس هيئة كبار العلماء، ويرأس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ويرأس المجلس العالمي الأعلى للمساجد، ويرأس مجلس المجمع الفقهي للرابطة وظل سنين رئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. فلم يضعه ذلك في برج عاجي أو في صومعة منعزلة، بل ظل بيته مفتوحاً، ومكتبه مفتوحاً وقلبه مفتوحاً لكل ذي حاجة من أبناء المسلمين، مادية أو علمية، لا يغلق بابه في وجه أحد ولا يضيق صدره بلقاء أحد، ولا يدخر جهده في مساعدة أحد».

قام على رئاسة هذه المهام، فأثراها بعلمه، وتوجَّها بفعله، وأسعدها بفقَّهه.

* رئيس هيئة كبار العلماء:

□ كان يرأس هيئة كبار العلماء، وهي هيئة عظيمة الشأن رفيعة القدر، عالية المكانة. ليست الهيئة مجرد مجموعة من العلماء يجتمعون لإصدار بعض الفتاوى الفقهية فحسب، بل هذه الهيئة كانت ذات صبغة علمية اجتماعية سياسية، تهتم بأهم القضايا الشرعية، والمسائل الاجتماعية، والمصالح السياسية، فيما يتعلق بالملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، وفيما يتعلق بالعالم الإسلامي على وجه العموم، فهي بمفردها

قلعة من قلاع العلم والمعرفة، لها أهميتها البالغة ولما تصدره من فتاوى وتوصيات. وإدارتها والقيام عليها، والنجاح في قيادتها، ليس بالأمر الهين ومع ذلك فقد تمكن الشيخ من القيام عليها بقوة واقتدار، وكان حسن السياسة، حكيم القيادة، بديع الريادة، لم توجد ذرة من جفوة أو شقاق بينه وبين إخوانه وأبنائه العلماء.

كريمٌ يغض الطرف بفضل حيائه ويدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لا ينته لان مسه وحده إن خاشنته خشان

□ يقول لي أحد الأعضاء: كانت تطرح المسألة من المسائل، فيبدأ النقاش فيها، فهذا يدلي برأيه، والآخر ييدي وجهة نظره، وذاك يقول وهذا يلاحظ، وقد يحتدم النقاش، وأنت تنظر إلى الشيخ وهو في غاية من الإنصات والأدب والتواضع، حتى إن الذي يراه وهو لا يعرفه، يقول هذا من عامة الناس، فإذا ما بدأ سماحة الشيخ قائلاً: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ثم اندفع كالسيل المتدفق، وتفجر بالعلم كالبحر الهادر، وجاد بالحكمة كاللؤلؤ والمرجان، وأورد الآراء، وناقش الوجهات، ثم نفذ بفكره الثاقب إلى أعماق المسألة، فجاء فيها بنياً عظيم، ورأي حكيم، فيأتي رأيه مثل فلق الصبح، ويلقى من الجميع القبول والريح، فإذا بالجمع منذ أن يبدأ كلامه في غاية من الإنصات والاستماع والإجلال والإعجاب والإكبار.

ومُخرقٌ عنه القميص تخالهُ بين الرجال من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيتُهُ تحت اللواء على الخميس زعيما

□ يقول الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان - عضو هيئة كبار العلماء - في مقاله المدرج في هذا الكتاب: «إذا التقى مجلس هيئة كبار العلماء فأول ما يتندر سماحته الحديث بالسؤال عن شئون الأمة الإسلامية، يستكشف أخبارها في جميع أقطارها، يتلمس أنباءها إن كانت خيراً حمد الله وأثنى عليه، وإن

كانت غير ذلك أحزنه أمرها، ودعا الله أن يكشف الغمة عنها، وسعى ما استطاع من قول وعمل وجهد لما يرفع عنها الشدة، ويزيل عنها البأس.

□ يتأنى - رحمه الله - في الأحكام، يعطي الفرصة الكافية لكل صاحب رأي أن يعرضه ويقرره دون تضيق أو مضايقة، يمد الوقت أكثر فأكثر مداولة ونقاشاً حتى يتمخض المجلس عن رأي سديد يحقق المصلحة. ولا يطمئن حتى لا يبقى للمداولة والنقاش مجال وهو في أثناء ذلك وقبل ذلك وبعده، يذكر نفسه وأعضاء المجلس في صوت متهدج ممتلئ خوفاً ورهبة من المولى عز وجل، يذكر بمراقبته تعالى والإخلاص والتجرد والنصح للعامة وولاية الأمر، ومن ثم الدعاء بالصالح والرجوع إلى الله عز وجل لا يفتأ يكرر هذا بداية وانتهاءً اهـ.

□ وإنني على يقين أن الهيئة الموقرة - متعنا الله بعلمائها - ستقوم بواجبها تجاه إمامها العظيم، وشيخها الكريم، وستجلبى للعالم حقائق ووثائق من جهده النافع، وعطائه الناصع.

* رئيس مجلس الرابطة:

□ وكان سماحته - يرحمه الله - يرأس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وهي أيضاً هيئة لها مكانة عالمية بعيدة المدى، عميقة الأثر، واسعة النشاط، ونشاطها على مستوى العالم الإسلامي، وقد قام بهذه المهمة خير قيام، وحقق نجاحاً باهراً، وسمعة شامخة، وإكباراً وإجلالاً من العالم بأسره.

* رئيس المجلس الأعلى:

□ كان - رحمه الله - يرأس المجلس الأعلى العالمي للمساجد، وهذا أيضاً من المجالس ذات الأهمية البالغة، فهو مجلس عالمي، وليس وطنياً أو

إقليمياً، وقد ظهرت بركة الشيخ، وصلاح نيته، ظهرت آثارها واضحة جلية على هذا المجلس، وما قام به من مهام على مستوى العالم الإسلامي.

* رئيس المجمع الفقهي:

□ وكان يرأس المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة، التابع لرابطة العالم الإسلامي.

□ وهذا المجمع من أعظم وأجل وأنفع المجامع، إنه قلعة شامخة من قلاع العلم، إنه منارات إشعاع تسطع أنوارها في أنحاء العالم الإسلامي إنه عطر يفوح بعبير الشريعة الربانية، ويعبق بشذى الفقه الإسلامي، أنشئ ليقوم بمهمة عظيمة، ويؤدي رسالة خالدة.

□ ولهذا المجمع الفقهي مجلس يضم نخبةً ممتازة من فقهاء العصر ومفكره، متخصصين في مختلف المجالات والعلوم الإسلامية.

□ وقد أنشئ في عام ١٣٩٦هـ، هذا المجمع الذي شرف برئاسة سماحة الشيخ له، وصل في التوفيق إلى مداه، وبلغ في المجد والسبق والفضل إلى منتهاه، وكانت إدارة الشيخ له وقيامه بمهامه محط إعجاب وإكبار من الجميع، واسمع بعض أعضاء المجمع ماذا يقول عن الشيخ: «ولقد رأيت في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها، ما يوافقه منها وما يخالفه ويتلقاها جميعاً باهتمام، ويعلق بأدب جم، ويعارض ما يعارض منها برفق وسماحة دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدباً بأدب النبوة، ومتخلقاً بأخلاق القرآن».

□ وإنك بنظرة واحدة إلى الموضوعات والمسائل التي طرحت ودرست في هذا المجمع، ترى الأهمية الكبرى لوجوده وتعرف المنزلة العظمى له. لقد عالج كثيراً من القضايا، ودرس عدداً هائلاً من المسائل الشائكة

التي تعترض المسلمين في شتى أنحاء الدنيا .
وأعلم يقيناً أن المسؤولين في الرابطة عموماً، والمجمع الفقهي خصوصاً - وفقهم الله وبارك فيهم - سيقومون بالكتابة عن جهود الشيخ - رحمه الله - وأثره وإثراته لهذه القلاع العملاقة .

* عطاء بلا حدود :

□ وقد كان سماحه الشيخ إضافة إلى ما سبق ذكره، عضواً هاماً باراً راشداً لكثير من اللجان والهيئات، ومع كل ما رأيت من جهود عملاقة، ومناصب شامخة، وأعمال جادة عظيمة كبيرة كثيرة، فإن هذا كله في كفة وما تركه من تراث العلم وبركة الهدى، وروائع الفتيا في كفة .

□ وفتاوى اللجنة الدائمة التي كان يرأسها - رحمه الله - من الأعمال العملاقة التي ستظل على مر القرون تنطق بفضله، وتشهد بعظمته، وتبين عن سعة علمه، وقد بلغ المجموع والمطبوع منها عشرات المجلدات .

□ أفلا يكون من قام بهذه الجهود الجبارة، ومن أفعمت حياته بهذه الأعمال العملاقة، التي عمّ نفعها الأرض، ووصل خيرها إلى أنحاء الدنيا، إضافة إلى ما مرّ من صفاته وسماته وجهوده ودعوته وبذله وكرمه ودروسه وعلمه، أفلا يكون مثل هذا الرجل : «أمةٌ وحده»!!! .

□ اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله، ، ،

بعض صفاته كما رواها طلابه

● صفات الشيخ عديدة، ومناقبه جمّة، ومزاياه نهر فيّاض، وبحر متدفق، وإضافة لما سبق ذكره نورد بعضاً من صفات الشيخ ومناقبه كما يرويها بعض طلابه ومحبيه:

□ يقول الشيخ الدكتور عبدالله المجلي: «حياة الشيخ كلها عطاء، ولكنها خير، وكلها مواقف إيجابية وأحداثها ذات دلالة وأبعاد تربوية ودعوية، ومن الجوانب المهمة في حياته - رحمه الله - ما يلي:

١ - عدم الملل من القراءة والبحث والمطالعة فيمكن أن يجلس ساعات دون ملل أو ضجر في حين أن من حوله يملون ويضجرون ولقد استمر الشيخ في البحث والقراءة ومطالعة الكتب من سنوات عمره الأولى حتى ساعاته الأخيرة - رحمه الله.

٢ - الشيخ يحضر لدروسه جيداً ويقرأ كثيراً قبل الدرس بوقت كاف.

٣ - الشيخ متابع جيد وبدرجة كبيرة للأحداث السياسية من خلال وسائل الإعلام المتنوعة والنشرات الخاصة.

٤ - يحب - رحمه الله تعالى - الأخبار الطريفة والغريبة التي تنشر عبر وسائل الإعلام ويتعجب منها، وكنت أحرص على إحضارها إليه لإدخال السرور على نفسه - رحمه الله - وهو مسرور دائماً.

٥ - لا يخل الشيخ بنجاهه في أي مجال من مجالات الحياة ولا يتردد في بذل المعروف لأي أحد.

٦ - لم يكن الشيخ - رحمه الله - متساهلاً في أمور الشفاعة، فالشفاعة الحسنة عنده أولاً قرينة وطاعة لله تعالى، ثم هو لا يشفع إلا لمن يُزَكِّي عنده من عدد من الثقات المعروفين لديه بخلاف ما يظنه بعض الناس عنه في هذا الأمر.

٧ - للشيخ قدس الله روحه تعامل فريد مع الأطفال فحينما يسلم عليه الصبيان فإنه غالبًا ما يسأل عن الاسم ومستوى الدراسة ثم يسأله من ربك وما دينك ومن نبيك ولأي شيء خلقت وما الدليل، وأحيانًا ماذا تحفظ من القرآن.

٨ - أعمال الشيخ الخيرية والدعوية كثيرة جدًا، فهناك آلاف المساجد بنيت بواسطته في الداخل والخارج، وهناك المدارس وحلقات القرآن الكريم وحفر الآبار وشق الطرق وإعانات الزواج وغيرها كثير جدًا ولا يوجد فيما أعلم عمل خير إلا وكان للشيخ فيه نصيب وافر رحمة الله عليه.

٩ - من شدة كرمه وترحيبه بضيوفه أنه إذا انتهى من الأكل على العشاء أو الغداء لا يبادر بالقيام إلا بعد أن يتأكد من أن الجميع قد انتهى، وإذا قام قبل ذلك فإنه يردد عبارته المشهورة «كل باختياره كل باختياره» بمعنى أتموا أكلكم - رحمة الله تعالى عليه.

وإذا دعا له الضيف بعد الأكل فإنه يرد عليه بقوله: فيه العافية.

١٠ - إذا سمع من أحد كلامًا لا يعجبه أو تدخل فيما لا يعنيه فإنه يقول له (سبح سبح) لا يزيد على ذلك.

١١ - من دعواته التي كان يرددّها (اللهم اهدنا فيمن هديت) و(اللهم يحسن العاقبة) و(اللهم يطيب قلوب الجميع) حينما يذكر أحد عنده بسوء.

١٢ - حينما يخرج من عائلته ويستقبله أحد كتّابه أو أحد طلابه أو أحد حراسه فإنه يبدأ بالمصافحة قبل الشخص الآخر ويسأل عن أحوال أهله وهكذا من كريم خلقه وعظيم تواضعه.

١٣ - لا توجد قضية من قضايا المسلمين في حياة الشيخ إلا وكان له رأي فيها ودور بارز في معالجتها. (مجلة الدعوة العدد: ١٦٩٣).

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز العقل معدداً بعض مناقب

الشيخ في مقالة له عن سماحته: «ولعلي في هذه العجالة أشير إلى بعض هذه الفضائل والخصائص التي وجدتها فيه من خلال دروسه وجلساته ومن كتبه وأشرطته:

- ١ - التقوى والخشية لله تعالى .
- ٢ - الإخلاص والصدق مع الله والنية الصالحة .
- ٣ - كثرة تعلقه بالله تعالى وقوة التوكل والاعتماد عليه سبحانه ويقينه العظيم بالله تعالى .
- ٤ - كثرة تذكر الآخرة ونعيم الجنة وما أعدّه الله لأهلها وعذاب النار وما أعدّه الله لأهلها .
- ٥ - خشوعه وبكاؤه الكثير من خشية الله .
- ٦ - زهده في هذه الدنيا وتجافيه عنها وعن كل حطامها .
- ٧ - ورعه العظيم في أقواله وفتاويه رغم ما رزقه الله من علم غزير فقد سمعته عشرات المرات يقول إذا سئل: «الله أعلم» في مسائل يفتي بها سائر الناس فضلاً عن طلبه العلم .
- ٨ - قوته في العبادة وجمعه بين أنواعها من صيام وصدقة وقيام ليل وكثرة ذكر واستغفار وغيرها .
- ٩ - غزارة علمه وموسوعيته المتكاملة وإلمامه بفنون الشريعة وعلومها، وجمعه المتين بين الفقه والحديث .
- ١٠ - فهمه العميق لمقاصد الشريعة وإحاطته بنصوصها مع سعة الأفق وبعد النظر ودقة الفقه .
- ١١ - إدراكه الواسع لقواعد المصالح والمفاسد وقدرته الفذة على التوفيق بينهما ومعرفة الأصلح في هذا الباب الذي تزل فيه الأقدام .

١٢ - حرصه الشديد على اتباع السنة والدليل واقتفاء أثر النبي ﷺ

في كل شيء.

١٣ - جلده وصبره وجده في العلم فلقد كان يجلس لبعض دروسه ما يقارب من ثلاث ساعات جلسة واحدة ويقرأ عليه فيها أكثر من عشرة كتب رغم تقدم سنه وتردي صحته - رحمه الله -.

١٤ - ما حباه الله ومنَّ به عليه من قوة الحافظة والذاكرة التي متعه الله بها إلى آخر حياته.

١٥ - حرصه - رحمه الله - على كسب القلوب وتقارب الآراء وجمع الكلمة وتوحيد الصف.

١٦ - أدبه الرفيع مع المخالفين وعدم تجريحهم والتغليظ عليهم، وهذه منقبة عظيمة لا يتصف بها إلا أعظم الرجال.

١٧ - تصديه للبدع والرد على المبتدعة وجهاده الطويل في هذا المضمار.

١٨ - صدعه بالحق ووقوفه - رحمه الله - في وجوه الفتن واجتهاده العظيم في رد المنكرات وقمع الفساد وثباته الواضح أمام أمواج الفتن.

١٩ - مواقفه الجبارة في الإصلاح والدعوة ونشر الخير والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢٠ - عاليته الواسعة وتجاوزه هموم بلده ووقوفه مع المسلمين في أقطار الأرض والإحساس بهمومهم ومتابعة أخبارهم ودعمهم المعنوي والمادي.

٢١ - صدق شففته على الأمة ودوام مناصحة المسلمين عامتهم وخاصتهم، واجتهاده - رحمه الله - في ذلك.

٢٢ - تواضعه الجَمُّ ووقوفه مع الفقراء والمساكين والأرامل في كل بلد وفتح بابه لكل أحد، وسماعه لمشاكل الناس جميعاً والاجتهاد في معالجتها،

والسعي في قضاء حوائج الناس، والشفاعة لهم.

٢٣ - سماحة نفسه - رحمه الله - وسعة خلقه ولطفه ولين عريكته مع جميع الناس.

٢٤ - كرمه العميم وسخاؤه الذي لا يشق له غبار.

٢٥ - حلمه وعفوه وصفحه - رحمه الله - على من أغلظ عليه أو آذاه.

٢٦ - سمته ووقاره - رحمه الله - والسكينة التي لا تفارقه أبدًا.

٢٧ - بشاشته وطلاقة وجهه وحسن منطقه - رحمه الله تعالى - فله

دره كيف جمع بين هذه كلها. وهذه الصفات التي ذكرت في هذا الإمام المجدد إنما هي غيض من فيض سقتها كي يُقتدى به فيها (وله في كل واحدة مما ذكرت قصص وأخبار ومواقف عظيمة تستحق التأمل وتثير العجب تكتب بالمجلدات) فهو قدوة ومثال يُقدم لشباب الإسلام وطلبة العلم بل والعلماء عسى أن نسير مسيره ونرتسم خطاه ونتأسى به في هذه الخلال العظيمة التي من الله عليه بها جميعاً، نسأل الله أن يرفع قدره ويعلي في العالمين ذكره، ويسكنه فردوسه الأعلى، كما نسأله أن يأجرنا بفراقه ويخلفنا مثله، ويجبر قلوبنا بفاجعة موته - رحمه الله رحمة واسعة، وصلى الله على نبينا محمد^(١).

* الولي .. العابد المتهجّد .. البكاء .. الذاكر .. المخلص .. الزاهد :

□ لقد اقتدى سماحة الشيخ - رحمه الله - بالنبي ﷺ فهو عابد من العباد، ولي من الأولياء، قدوة للأتقياء كثير العبادة، دائم التسبيح، غزير الدمعة، رقيق القلب، خاشع النفس.

عن وطيء المضاجع	تتجافى جنوبهم
مستجير وطامع	كُلُّهم بين خائفٍ
للعيون الهواجع	تركوا لذة الكرى
طالعا بعد طالع	ورعوا أنجم الدجى
فائضات المدامع	واستهلت عيونهم
يا جميل الصنائع	ودعوا يا مليكنا
للعيون الدوامع	اعف عنا ذنوبنا
للولجوه الخواشع	اعف عنا ذنوبنا
شافع خير شافع	أنت إن لم يكن لنا

□ قال لي أحد الملازمين لسماحته في سر توفيق الشيخ ونجاحه، وبصيرته الثابتة في كثير من المعاملات والآراء والمواقف، قال: ما ظنك برجل يبيت يناجي ربه ويدعو ويرجو ويهتف ويبكي، ثم إذا ارتفع النداء بادر إلى المسجد ثم صلى الفجر في خشوع وخضوع، ثم أتى بكامل الأوراد ثم أتى له بالأوراق كلها، ثم يبدأ بقراءة المعاملات، والنظر في حاجات الناس، ثم قراءة بعض مسائل العلم، ثم قبل أن يخرج من بيته وهو في كامل طهره ووضوئه، متطهراً متطيباً متسوكاً، يتجه إلى الله تعالى ويدعوه أن يحفظه وأن يعينه وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، أليس مثل هذا حرياً بأن يكون التوفيق حليفه، والنصر ريبه، وأجزم أن الشيخ لو علم أنه سيموت في اليوم المحدد والوقت المحدد، ما زاد في عمله شيء، فكل وقته لله، وبالله، وفي الله، ومع الله.

□ يقول أحد تلاميذه: «أما صلابة الشيخ ونشاطه في العبادة فالمواقف فيه كثيرة جداً حدثني أحد الدعاة أن الشيخ سافر براً من الرياض إلى مكة أو العكس فلما جاءت الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل قال الشيخ: ما

رأيكم لو نمنا هنا، ثم في الصباح نكمل السفر فوافق كل من كان معه حيث غلبهم النوم، ويريدون أن يستريحوا فلما نزلوا من السيارة كل منهم ذهب إلى ناحية فنام فيها أما الشيخ فإنه لما نزل طلب ماء وتوضأ ثم شرع يصلي ما شاء الله له، ثم نام ولما قاموا لصلاة الفجر وجدوا الشيخ قد سبقهم للقيام ووجدوه يصلي!! فتعجبوا منه ومن جلده على العبادة، حيث كان هو آخر من نام وأول من قام فسبحان الذي أعطاه هذه القوة والعزيمة».

□ ويحدثني الشيخ محمد موسى بقوله: «في يوم من الأيام ونحن بمكة المكرمة دعني الشيخ من أحد الأعمام لديه للمساهمة في أحد الاحتفالات الدعوية بجدة، وألح على سماحته بالحضور بعد صلاة المغرب مباشرة، فقال له الشيخ: خيراً إن الله الله، وحينما صلى الشيخ المغرب عزَّ عليه أن يترك مجلسه المعهود مع الناس من المغرب إلى العشاء، فقال: لن نذهب الآن ونترك الناس لا بد أن أجلس لهم إلى صلاة العشاء، وننظر في حاجاتهم ومتطلباتهم، فجلس ثم أذن المؤذن للعشاء، فذهب إلى المسجد، فألقى درسه المعتاد قبل صلاة العشاء، وأجاب عن الأسئلة، ثم صلى العشاء واتجه إلى جدة، وكان في غاية السرور والانشراح؛ لأنه جلس إلى الناس ولم يذهب ويتركهم وراءه، فاستمع إلى شرح تفصيلي عن المشروع ونشاطاته، ثم دخل قاعة المحاضرات المكتظة بالناس فاستمع إلى كل الكلمات والقصائد، ثم ألقى كلمة، ثم بعد ذلك تناول طعام العشاء، وعاد إلى مكة، وفي أثناء ذهابه وعودته وأنا والدكتور الشويعر والأخ صلاح نتناوب القراءة عليه لم يقوَّت دقيقة واحدة، فما وصلنا إلى منزله في مكة إلا الساعة الثانية ليلاً يقول: والشيخ من عادته أن يقوم للتهجد في حوالي الساعة الثالثة ليلاً، وكان ينبهني أنا والشيخ عبدالعزيز بن ناصر دائماً، ينبهنا معه إذا قام يتهجد لكي نأخذ حظنا من الليل، قال: فجزمنا أنه لن يقوم في تلك الليلة، وأنه سينام ويتركنا ننام قال: فما جاء الوقت المحدد لقيامه إلا وهو ينبهنا ويوقظنا للقيام، ثم بقي

فانطلقنا إلى المسجد - مسجد القطان المجاور لنا، وهذا قبل بناء مسجد سماحته - يقول: فتأخر الإمام فصلى بنا الفجر في صوت لا تسمع بأندى ولا أخشع منه، فلما سلم، استقبل الناس بوجهه، وحمد الله وأثنى عليه، ثم ألقى فيهم كلمة، فلما فرغ عاد إلى البيت، فقلنا الشيخ مرهق وسهران، ربما لا يجلس اليوم بعد الفجر قال: فأتى إلى مجلسه، ورمى الغترة والطاقيّة جانباً، وجلس، ثم قال: باسم الله: ماذا عندكم؟ قال: فأنخذت أقرأ عليه المعاملات، وأنا أرى فيه من الانشراح والنشاط والسرور ما يبعث العجب، قال: فبقيت أقرأ عليه حتى الساعة السابعة والثلاث تقريباً، قال: فظننت أنه سينام بعدها نومة طويلة، فإذا به يقول لي: ربّ الساعة على ثمانية وثلاث، قال: فأيقظناه الساعة الثامنة والثلاث، فانطلق إلى رابطة العالم الإسلامي لحضور الندوات والاجتماعات المطولة، ولم يرجع إلى منزله إلا في وقته المعلوم، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ونحن جميعاً نكاد نسقط على وجوهنا من التعب والإرهاق ولم نلاحظ عليه شيئاً من ذلك - رحمه الله تعالى -.

❏ لقد كان - رحمه الله - آية في التقوى، أعجوبة في الزهد والمراقبة والخوف من الله - جل وعلا - كان من الذين يتقون الله حق تقاته وماتوا وهم مسلمون، كان من المتقين الذي اهتموا بكتاب الله تعالى، وآمنوا بما أنزل على رسوله، لقد كانت التقوى ديدنه في حياته، ووصيته لجلسائه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فامثل الشيخ وصية ربه التي أوصى الناس جميعاً بها، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْدِي نَسَاءُ لَوْ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ووصى المؤمنين بالتقوى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرُوا
نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَعَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ووصى نبيه وهو اتقى الناس بالتقوى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾
[الاحزاب: ١].

* محافظته على الصف الأول في الصلاة:

□ ومن صور التقوى عنده - رحمه الله - المحافظة على الصلوات وإقامتها بخشوعها وركوعها وسجودها وأذكارها ودوام المحافظة على قيام الليل وكذلك السنن الرواتب وسنة الضحى وغيرها، وكذلك المحافظة على الأذكار والأوراد الشرعية: أذكار الصباح والمساء، دعاء الخروج من المنزل ودعاء ركوب السيارة وإجابة المؤذن حتى لو كان في أهم عمل فإنه يتركه ويجب المؤذن، وإذا كان في السيارة وحان وقت الأذان طلب فتح المذياع ليستمع إلى الأذان ويتابع المؤذن، ويذكر الدعاء المشروع بعد الأذان.

□ ومن صور التقوى في حياته عدم الكلام في غير طاعة، أو الحديث فيما لا ينفع.

ومن صورها الخشوع والخضوع والبكاء من خشية الله.

ومن صورها الحرص التام على القول السديد، فأصلح الله أعماله وبارك أحواله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٧٠-٧١].

ومن صورها الامثال الكامل لأخلاق القرآن، وآدابه وأوامره ونواهيه، والاقتداء الأمثل بسنة النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من حياته.

□ هذا الإمام العابد لا أعرف أنني في يوم من الأيام رأيته في الصف

الثاني أو الثالث، فضلاً عن رؤيته وهو يأتي بركة أو ركعتين فاتته من الصلاة، كما هو حال كثير منا اليوم، بل كان دائماً في الصف الأول وراء الإمام مباشرة، سواء في الصلوات الخمس أو الجمع أو الأعياد.. أو غير ذلك لا أعرف في حياتي أنني رأيته في غير هذا المقام الأسبق، وهذا سر من أسرار توفيق الله له، وسبب من أسباب البركة العظيمة في عمره ووقته وعلمه ودعوته وجهده ورزقه، كيف يوفق العالم أو الداعية أو المسلم أياً كان، كيف يوفق توفيقاً بيناً ويرتقي ويتقدم وهو من المتأخرين عن داعي الله، المتهاونين بالمسابقة إلى نيل رضاه؟

□ يقول الدكتور عبدالله الحكمي: «أذكر وصيته يوم جثت أقرأ ورقة فور انتهاء المؤذن من الأذان، فسأل: لم أسمع الأذان، هل أذن؟ فقلت: نعم الآن أذن. فقال: أتعلم وقد أذن؟ الصلاة الصلاة؟»

الصلاة قوة للنفس، وسعادة للقلب، وانسراح للصدر، وطمأنينة للروح، الصلاة هي لحظات الارتقاء الروحي التي يقف المرء فيها بين يدي ربه - جل وعلا - يثني عليه، ويدعوه ويرجوه، ويستمد العون منه، ولذلك جعل الله تعالى الصلاة سلاحاً للمؤمن، ووعوئاً له في معركة الحياة وأوصاب الدنيا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والنبي ﷺ جعلت قرعة عينه في الصلاة، ومن عرف محافظة الشيخ العظيمة واهتمامه البالغ بالصلاة، عرف سرّاً من أسرار القوة والعزيمة والفلاح والنجاح في حياته - رحمه الله - .

□ هنا قصة طريفة حدثت لسماحته، وهي تدل على حرصه الشديد - رحمه الله - على الصلاة، وتعلق قلبه بها، ولقد كنت أرمقه في صلاته، فلا والله ما رأت عيني، ولا سمعت أذني، أكمل ولا أجمل، ولا أفضل، ولا أتم من صلاته، فيمن رأيت من الناس في زماني.

القصة يحدث بها سماحته أحد الموظفين لديه، والمقربين إليه، وهو الشيخ محمد موسى، وحدثني بها بعد وفاة الشيخ - رحمه الله - يقول: هذه القصة ذكرها لي سماحته قبل حوالي عامين، ويقول سماحته - رحمه الله - قصة حدثت لي لا أزال متأثراً بها إلى اليوم حدثت أيام شبابي، فقد كنت من المحافظين على الصف الأول في الصلاة، وفي يوم من الأيام تأخرت عن الحضور مبكراً بسبب القراءة في بعض الكتب لبعض المسائل الهامة التي شغلتنني عن الصلاة، فلم أدرك الصف الأول، وفاتني بعض الشيء من الصلاة، وحينما سلم الإمام، وهو قاضي الرياض الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وكان أحد مشايخي - رحمه الله - حينما رأيته أصلي في طرف الصف، وقد فاتني شيء من الصلاة، تأثر لذلك كثيراً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم بدأ يتكلم وقال: بعض الناس يجلس في سواليف ومشاغل حتى تفوته الصلاة، يقول سماحته: فعرفت أنه يعني بذلك الكلام، فلم أتأخر بعدها أبداً، وذلك الموقف الذي حصل لي ما أنساه أبداً!!

إن هذه القصة وغيرها من القصص الكثيرة التي روينها والتي سوف يرويها غيرنا إنها بمجموعها تجعل المرء يقف على السر الحقيقي في رفعة هذا الإمام وعلو همته، وذياع صيته - رحمه الله رحمة واسعة -.

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا
فلو أنني استطعت غضضت طرفي فلم أبصر به حتى أراكا
إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكي

* المداوم على ذكر الله:

□ لقد كان الشيخ - رحمه الله - لاهجاً بذكر الله، مترغماً بالتسبيح والتحميد والتكبير والتلهيل، لا يفتر لسانه أبداً، بل لقد كنت أرمقه وهو يرد

على المتصلين فأراه في أثناء إنصاته لحديث المتصل يلهج بالذكر، ولقد كنت أنظر إليه بعد انتهاء الصلوات فإذا به لا يقوم من مصلاه إلا وقد أتى بالأذكار كلها، وأطول مدة كان يجلسها في الصلوات هي بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب، بعد الفجر لأنه يأتي بأذكار الصلاة، ثم يأتي بأوراد الصباح، فيقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، ويقول: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» مائة مرة.. إلى غير ذلك، وكذلك الحال بعد صلاة المغرب.

□ لقد كانت محبة الله وعظمته، والتعلق به ظاهرة جلية ينطق بها لسانه، ويخفق بها جناؤه، ويسطرها بنائه، وهذا سرٌّ من أسرار التوفيق في حياته، والبركة في عمره وعلمه - رحمه الله -.

* إخلاص الشيخ الإمام:

□ لم يكن الشيخ - رحمه الله - باحثاً عن سمعة، أو لاهئاً وراء المديح، أو متطلعاً للثناء، بل كان في كل ما يعمل وما يذر يقصد وجه الله تعالى، كما نحسبه والله حسيبه، وكما علمنا ذلك من واقع المعاشة والمتابعة لم يكن الشيخ ممن يحب التصدر أو الظهور، لقد بسطت جميع الوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية، أذاعتها لاحتضان الشيخ، وأشرعت أبوابها لاستقباله، وارتمى كثير منها عند قدمه، فلم تظفر منه بشيء من ذلك، يهرب من الأضواء، ويكره الضجيج، ويتعد عن مواطن الشبه، مهما أولت له التأويلات، وذكرت له المبررات.

□ كان - رحمه الله - لا يسمح لأحد من الشعراء والأدباء بإنشاء الشعر في إطرائه أو مديحه، وإذا تجرأ بعضهم على شيء من ذلك فإنه يوقفه في أثناء القصيدة، ولا يدعه يكملها، وقد حدث ذلك أمامي مرّات كثيرة^(١).

(١) «إمام العصر» (ص ٦٨).

* زهد الإمام ابن باز في الدنيا :

□ ما كان سماحة الشيخ ابن باز يلقي للدنيا بالآ، ولا يقيم لها شأنًا، ولا يحسب لها حسابًا، أعرض عنها مستعليًا عليها فأقبلت إليه وهي راغمة، إن هذا الشيخ ليس له من صفات أهل الدنيا إلا أنه يعيش بينهم وإلا فانت والله ترى رجلاً من أهل الآخرة قلبه هناك، وفؤاده هناك يجلس إلى الناس وقلبه في الملأ الأعلى، ويتحدث معك وروحه مع خالقه.

إذا كان حب الهائمين من الوري بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا
فماذا عسى أن يفعل الهائم الذي سرى قلبه شوقاً إلى الملأ الأعلى
سُئل الشيخ عبدالرحمن بن عتيق المسئول المالي لسماحته: هل سألك الشيخ في يوم ما عن الراتب متى يأتي، أو متى يصرف، أو شيء من هذا، وهل سألك في يوم ما قدر الراتب، كم هو؟ فقال: والله ما سأل عن ذلك أبداً وإنما كان يسأل عن رواتب الناس ويحضض على عدم تأخيرها.

□ إن أمر هذا الشيخ كان عجباً، ولولا أنها حقائق رأيناها وعشناها لقلنا: إنها من عالم الخيال.

أتيت في يوم من الأيام فأخذت أتوسل إليه، وأترجاه وأحاول معه أن يوافق لي على السعي في شراء هذا المنزل الذي يسكنه بمكة فهو ليس له بل هو مستأجر، فحاولت إقناعه وقلت له: لا أريد منك إلا الموافقة والباقي عليّ، فقال لي: اصرف النظر عن هذا الأمر، أي شيء تحتاجه مني في مساعدة أو شفاعاة للمسلمين فلا تتردد، أما لي أنا فلا.

□ ولم تكن هذه حادثة فريدة، أو قصة وحيدة لسماحته، فإن سجل حياته قد ضمخ بعقب من هذه المواقف الماجدة، انظر إلى قصة حصوله على جائزة الملك فيصل - رحمه الله، تلك الجائزة التي لها مكانتها الدولية وثقلها العالمي، لم يكن في باله وهو يتسلمها أن يفرح بهذا المبلغ المغربي الذي جاءه

من غير تطلع أو استشراف نفس، لم يفرح به ليطور به بعض الضروريات الحياتية لأهله وأبنائه ومنزله أو يشتري به أرضاً أو يقيم به سكناً، بل انطلق لاستلامه وهو يحمل هموم الأمة الإسلامية في كل مكان، ومن ضمن ذلك دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة التي وقفت على خدمة السنة، ودراسة الهدى النبوي، وتحوي بين جنباتها عدداً هائلاً من أبناء العالم الإسلامي، الذين ينهلون من علمها، ويستنيرون بنورها، ولكن أوضاعها المادية متردية، وميزانيتها ضئيلة، إنها بحاجة إلى يد خيرة تشد من أزرها، وتدفع عجلتها، ومن إذاً إن لم يكن عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

براءة جازر الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام

□ إن هيئة جائزة الملك فيصل العالمية بعد اطلاعها على نظام جائزة الملك فيصل العالمية المصادق عليه من مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالقرار رقم ٩٨/٦٦/١١ وتاريخ ١٠/٨/١٣٩٨هـ وعلى محضر لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٤٠٢هـ تقرر منح صاحب السماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام هذا العام ١٤٠٢هـ وذلك لخدماته الجليلة المتمثلة فيما يأتي:

- ١ - تنوع نشاطاته في ميادين الدعوة إلى الله، ومثابرته على الجهاد والنضال والعمل الصالح في هذا العصر.
- ٢ - التزامه بالإسلام التزاماً عملياً في فكره وسلوكه، ومنهجه في الحياة ودعوته إلى ذلك.

- ٣ - إسهاماته القيمة في مجالات البحوث والدراسات، وفي حقول التعليم الإسلامي، ونشر الكتاب الإسلامي بجميع أنواعه، وتعميم توزيعه

في أطراف العالم، حتى غدا علماً بارزاً من أعلام الثقافة الإسلامية.

٤ - حرصه على إيجاد الحلول المناسبة لقضايا الإسلام والمسلمين في الديار والأصقاع المختلفة.

٥ - دعمه للجهاد الإسلامي في كل بقاع العالم.

٦ - مساندته المشاريع الإسلامية، وحث العلماء والأشخاص والهيئات على مساعدتها والمشاركة بها.

وإن هيئة الجائزة إذ تمنحه ذلك، تسأل الله أن يبارك في جهوده الخيرة وأن يمهده بعنايته وجميل رعايته، حتى يواصل عمله في خدمة الإسلام والمسلمين. والله ولي التوفيق

خالد الفيصل بن عبدالعزيز

رئيس هيئة الجائزة

❏ وقال الشيخ في هذا اليوم وهذا الحفل: «أسأل الله أن يعيننا على ما يجب علينا من خدمة الإسلام والمسلمين وأن يكلل الجهود بالنجاح والصلاح، وأن يعفو عنا ما قصرنا فيه فإن التقصير كثير، لكن نسأل الله أن ينفعنا لتقديم الخير وأن يعفو عنا وعن إخواننا جميعاً فيما قصرنا فيه، وأن يمنحنا جميعاً النشاط والقوة في ميدان الحق ونفع المسلمين في كل مكان قولاً وعملاً.

❏ وبناء على هذا وأني حصلت عليها بسبب تقدير إخواننا في الهيئة طبعاً تقديراً على الخدمة الإسلامية فإني أ بذلها أيضاً وأهديها أيضاً إلى دار الحديث الخيرية الأهلية المكية معونة لها على ما تقوم به للخدمة الإسلامية، فإن دار الحديث الخيرية الأهلية بمكة تخدم المسلمين أيضاً وتخدم أبناءهم في سائر أرجاء المعمورة من أفريقيا وآسيا وغيرها.

* خدمة المسلمين ولين الجانب :

□ يقول الدكتور ناصر الزهراني في كتابه «إمام العصر» (ص ١١٧) - (١١٩): «بعض الناس قد يطبق السنة، ولكن ما راق له منها فقط، وما وافق هواه، وتمشى مع واقعه، أما الشيخ فلم يدع منها شيئاً، تمثلها روحاً وواقعاً فمن تشعبت به السبل، وبارت الحيل، لجأ بعد الله إلى هذا الشيخ، لينفس كربته، ويفرّج همه، ويحل مشكلته، إما بمساعدة، وإما بخطاب شفاعته، وإما بنصيحة، وكلُّ ذلك بصدرٍ رحب، وأدبٍ جم، ولا يلحقه منّا ولا أذى، وأجزم لو جمعت خطابات الشيخ في الشفاعات فقط لجاوزت الملايين، أين ذلك من أناس أعطاهم الله جاهاً ومكاناً، ومع ذلك لا يطمع المكروب في تنفيسهم لكربته، ولا المهموم في تفريحهم لهمه، ولا المستشفع في نيل شفاعتهم، وربما لو شفع الواحد منهم شفاعته واحدة في الأسبوع لرأها أمراً عظيماً، ومبادرة كبيرة، ولعدّها من أهمّ المواقف في حياته!!».

وانظر إلى مواقف سماحة الشيخ - رحمه الله - بذلت شفاعته للبعيد قبل القريب، وللغريب قبل المقيم، أما لنفسه فليس له من ذلك نصيب أبداً. لقد كنت وأنا واحدٌ من آلاف المتعاملين معه، والمستعنين به بعد الله في حل مشاكل الناس، وتنفيس كرباتهم، كنت والله أذوب خجلاً وأقطر حياء من الشيخ من كثرة ما أكتب له.

فأتيته في يوم من الأيام فقبلت جبينه الطاهر، وجلست عند قدميه، وقلت له: يا سماحة الوالد أنا أتيت معتذراً منك لكثرة خطاباتي إليك، وشفاعاتي عندك، وأنا في غاية الحرج، الناس يؤملون في الخير، وأنا وهم أملنا بعد الله تعالى فيك، فأرجو أن لا يضيق صدرك بهذا، فإن كان في الأمر مشقة عليك، فسوف أختصر الكتابات، فابتسم، وقال: «هذاك الله.. هذاك الله، اشفعوا تؤجروا، اشفعوا تؤجروا، جعلكم الله مفاتيح للخير،

جعلكم الله مفاتيح للخير». فازددت نشاطاً إلى نشاطي، وحماساً إلى حماسي، وكنت كلما بردت همّتي، أو كَلَّتْ عزيمتي، سرت إلى سماحته، وبادرت بزيارته، فأجلس إليه ساعة أو جزءاً منها فأنظر إلى صبره وجهاده وحلمه وعطفه وبرّه وعزيمته، وهو في هذا العمر الكبير، والسن المتقدمة ثم أنظر إلى نفسي، وأنا الشاب الجلد الذي من الله عليه بالصحة والعافية، فأقول ماذا قدّمت أنا لآمة الإسلام، فأخرج من عنده وقد امتلأت نفسي حيوية ونشاطاً، وإيماناً و يقيناً.

* الشمولية في الحياة:

□ إن الأبواب المتعددة، والأنواع الكثيرة، من أعمال البر، والخير والإحسان والعلم والتعليم، كانت بأنواعها متمثلة في سماحة إمامنا وعالمنا - رحمه الله -.

فلم يكن الشيخ عالماً فقط، فالعلم لا شك رتبة رفيعة، ومنزل منيف، ولكن الإنسان بالعلم وحده لا يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ - رحمه الله - والشيخ ليس بدعاً من الأمر ولا شيئاً خارقاً للعادة في حياة البشر، بل وصل إلى ما وصل إليه بالتزامه الكامل بالهدي النبوي فقد كانت هذه الشمولية متمثلة أجمل تمثيل، واضحة أحسن الوضوح في حياة النبي ﷺ، كان العالم والمعلم والأب والأخ والناصح والمعين والكريم والجواد والعطوف والمحسن والجواد والحليم والرفيق بذل وقته لربه ولكتابه ولأمته.

□ إن هنالك كثيراً من العلماء يعلمون الناس ويدرسونهم أخلاق النبي وصفاته وحسن تعامله، ولكن البشرية محرومة من عطفهم ورفقهم ومخالطتهم، والسعي في حوائجهم، وكسب قلوبهم، وإطعام جائعهم وتنفيس كربهم، وتفريج همومهم، ونصرة مستضعفهم، فأنى للناس أن تحبهم، وتسكنهم في حنايا قلوبهم.

إن كثيراً من العلماء والمشايع لا يطمع الناس في رؤيته إلا على شاشة

التلفاز، أو في صلاة العيد أو الجمعة - لمن لم يكن من أهل الحي - أو في مشهد عام، أو على كرسي التعليم، ولكن بعد ذلك يضرب بينهم بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، لا تطمع منه في زيارة، لا تحلم منه بشفاعه، لا تؤمل في تنفيس كربة، لا ترجو بذلاً أو عطاءً أو غداءً أو عشاءً.

□ أما سماحة الشيخ - رحمه الله - فقد بذل نفسه ووقته وماله وجاهه في سبيل الله، كنت أتأمل بعض أعماله فأرى ما يبهر النفس ويهيج القلب ويسر الخاطر، فالجأ إلى الله تعالى شاكرًا حامدًا على أنه أوجد في أمة محمد أمثال هذا الرجل الهمام، أعطيك مثالاً واحداً يفعله الشيخ في وقت واحد فقط، وهو بعد صلاة الفجر، دعك من بقية اليوم، يصلي الشيخ الفجر، ثم يأتي بالأوراد كاملة، بما في ذلك قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، وقول: «سبحان الله وبحمده» مائة مرة، يفرغ من ذلك ثم يجيب على أسئلة بعض طلبة العلم والمستفتين الذين يلتفون حوله بعد الصلاة، ثم ينطلق إلى بيته فيؤتى له بالتمر، وكان - رحمه الله - يحب التمر كثيراً، ثم تدور القهوة، وفي أيامه الأخيرة - رحمه الله - كان يشرب الحليب بعد الفجر، وكان تقريباً هو غذاؤه طيلة يومه - في أيام مرضه - وحين ابتداء جلسته يكون المشايخ العاملون معه قد جلسوا عن يمينه وعن يساره، فيبدأ بالذي عن يمينه ثم ينتهي منه، وينتقل إلى الذي عن يساره، وقد يكونون ثلاثة أو أربعة أحياناً، الشاهد من هذا كله وما أريد التذكير به هو هذه الشمولية، فتبدأ المعاملات:

الأولى: نحن أهالي القرية الفلانية لدينا مقبرة قد وطئتها الأنعام وتهدم بناؤها وسقطت حيطانها فنرجو من سماحتكم مساعدتنا في تسويتها، فيكتب الشيخ لهم بالإيجاب، ويسعى في تحقيق أمرهم.

الثانية: نحن إخوانكم من المسلمين أهل السنة والجماعة في البلد الفلاني ونحتاج إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية.. فيستجيب لطلبهم ويكلف من يبحث موضوعهم.

الثالثة: أنا امرأة أرملة فقيرة مات زوجي وترك لي أطفالاً صغاراً، وليس لي مصدر دخل، فأمل من الله ثم منكم مساعدتي، فإذا تأكد الشيخ من صدقها، وفحص أوراقها، أمر لها براتب شهري لا يقل عن ألف ريال.

الرابعة: نحن من إخوانكم المسلمين في أمريكا ولدينا أرض نريد شراءها لتعمير مسجد عليها، فنأمل من الله ثم منكم مساعدتنا والشفاعة لنا لدى أهل الخير لشراء هذه الأرض، فيجد الأمر غاية الترحيب منه - رحمه الله - ويكتب لمن يراه من أهل الخير.

الخامسة: سماحة الوالد لقد وقع بيني وبين زوجتي خلاف شديد مما أدى إلى غضبي وتلفظي بالطلاق.. وإني في حيرة من أمري أمل منكم إفتائي في هذا الأمر، فيطلب الشيخ منه الحضور مع الزوجة والولي إلى منزله، ويكون ذلك في الغالب بعد العشاء - وهو أمر شبه يومي - فيظل وقتاً طويلاً معهم ويسمع أقوالهم ويفتي لهم، وكم من أسرة التم شملها بفضل الله تعالى ثم بفضلهم، وفهمهم، وعلمه، وفتواه.

السادسة: نحن جماعة من أهل الكتاب والسنة في البلد الفلاني، ونحتاج إلى عدد من المراجع المفيدة في العقيدة والتفسير وغيرها، فيستجيب لطلبهم، ويبعث لهم بعدد من الكتب والمراجع القيمة، ويدعو لهم بالفلاح والنجاح، والثبات على الحق.

السابعة: نحن أبناؤكم في البلد الفلاني، ولدينا جماعة تسمى كذا، فما رأي سماحتكم في السير معهم والاستماع إلى كلامهم، وما هو معتقد

أهل السنة والجماعة الصحيح الذي تنصحوننا بالسير عليه فيأتي الجواب شافياً كافياً يفيض علماً وحلماً وطهرًا ورفقًا ورحمة.

❑ وهكذا ينطلق بهذه النظرة الشاملة والنفع العام والخير الأتم، ومن يطبق مثل هذا العمل الشاق المتعدد الموارد والأشكال والأحوال بصورة يومية بل يمتد هذا الجهد من الفجر إلى منتصف الليل أحيانًا.

❑ قبل وفاته - رحمه الله بأيام أرسل لي بمعاملة كنت بعثت بها إليه لبناء مسكن لأرملة فقيرة تهدم منزلها، وأبدى موافقته على ذلك، وبعد وفاته أتتني بعض المعاملات التي بعثت بها إليه قبل وفاته - رحمه الله - بأيام من ضمنها ثلاثة طرود من الكتب النافعة لكي أرسلها إلى الهند لجمعية إسلامية هناك، كتبوا لسماحته يطلبون كتبًا في العقيدة والتفسير، وجاءني شيك بمبلغ من المال مساعدة لرجل تحمل حمالة، فكنت أقرأ خطابات سماحته - رحمه الله - التي وصلتني بعد موته، وأثر دموعي عليها، وأقول: رحمك الله، رحمك الله، ولقد جاءني خطاب موقع من سماحته في آخر يوم من أيام حياته يوم الأربعاء ٢٦ / ١ / ١٤٢٠ هـ.

❑ وأذكر هنا قصة رواها الدكتور محمد الشويغر تدل على الآفاق الخيرة التي بلغها سماحته - رحمه الله - يقول: «ذهب وفد سعودي في إحدى المهمات إلى غابات أفريقيا، فجاءت عجوز عند هذا الوفد، وقالت لأحد رجال الوفد: أنتم من السعودية؟ فقال: نعم، فقالت: أبلغ سلامي على الشيخ ابن باز، فقال: كيف عرفتيه؟ فقالت: لقد كنت أنا وزوجي عائلة نصرانية وأسلمنا، ولكن طاردنا أقاربنا، وضائق بنا الدنيا، فسألت عن مساعد بعد الله، فقالوا: ليس لك بعد الله إلا ابن باز، فكتبت إليه، وكنت لا أتوقع وصول الرسالة، ولكن فجأة إذا بالسفارة السعودية تتصل بي وتطلبني بمراجعتها وإذا بسماحته قد أرسل لها بمساعدة عشرة آلاف ريال،

فهذا الرجل كان له فضل بعد الله في ذلك بعدما عرف أننا في بلاء ونحن مسلمون.

لقد كانت جهوده عظيمة، وفيوضه كبيرة، وعطاءاته دائمة لا يكل من فعل الخير ولا يمل.

❏ رأيت في الأشهر الأخيرة من حياته ذهب في يوم من الأيام من مكة إلى جده ليشارك في مؤتمر هناك، ثم تناول معهم طعام الغداء، فعاد إلى مكة، فصلى العصر وألقى الدرس بعد العصر، ثم ارتاح قليلاً ثم صلى المغرب وجلس قليلاً للناس، ثم ذهب إلى جدة لإلقاء محاضرة بعد العشاء، ثم بعد المحاضرة استضافه أحد الفضلاء، فذهب إليه، وألقى محاضرة، وأجاب على الأسئلة، وتناول طعام العشاء، وعاد ومرافقه يقرأ عليه عددًا من المعاملات والكتب من جدة إلى مكة، ثم كان أول الحاضرين في صلاة الفجر، وقس على ذلك كثيرًا، وهذا غيظ من فيض من الجهد الجبار، والنفع المتصل، والعطاء المبارك، مما يجعل عن الوصف، ويصعب على الحصر.

❏ واستمع إلى هذه الحادثة التي هي أغرب من الغرائب، وأعجب العجائب، وقد حدثني بها الشيخ محمد موسى - حفظه الله - يقول: "في مرض الشيخ الأخير كنا في الرياض في شهر شوال لعام ١٤١٩هـ، قال في يوم من الأيام، وكان يوم الجمعة اشتد المرض بالشيخ وتعب تعبًا شديدًا في ذلك اليوم، وكان طوال يومه يعاني ويتقيأ، فلم يستطع أن يصلي مع الناس لا الجمعة ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، فقرروا نقله إلى المستشفى وجاءه بعض المحبين له يطمنون على صحته وكان من بينهم سماحة الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ نائبه - المفتي حاليًا -، وقد قال مُطمئنًا لهم: أبشركم الأمر سهل والحمد لله، تأثر خفيف، وسأذهب إلى المستشفى ونعود إليكم إن

شاء الله.

قال فذهبوا به إلى المستشفى وهو في حالة من التعب والمرض والإرهاق فعملوا له منظاراً وأعطوه بعض المغذيات والمهدئات فاستقرت حالته نوعاً ما.

يقول: فاتصلت على الإخوان الذين مع الشيخ، وقلت لهم: بشروا كيف حال الشيخ الآن، فقالوا: بخير والحمد لله، ولكنه يحب أن يقرأ عليه أحد، فقام أحد المرافقين وقرأ عليه قدرًا لا بأس به، ثم ناموا فإذا بالشيخ يقوم في وقته المعلوم لصلاة التهجد فيصلي ما شاء الله له، ثم يقرأ القرآن، ثم يصلي بمن معه من المرافقين والأقارب والعساكر، صلى بهم الفجر، ثم استقبلهم بوجهه وألقى فيهم موعظة مؤثرة، ثم قرأ الأذكار والأوراد كاملة، فسأل الأخ صلاح عثمان: ماذا معك يا صلاح، قال: معي فتح الباري، وفتح المجيد، قال: باسم الله اقرأ، فقرأ عليه إلى حوالي الساعة السابعة، قال: فذهبت إلى المستشفى لأطمئن على الشيخ، وكانت الساعة السابعة والنصف، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف دخلت على الشيخ، وكنت أظنه نائمًا، فإذا به جالس على كرسيه يقرأ القرآن الكريم، فسلمت عليه فبادرني بقوله: هات إيش معك، فقلت: يا شيخ معي معاملات كثيرة، ومعني فتاوى اللجنة الدائمة الجزء الثاني عشر صدر من المطابع، ولكني تركتها بالسيارة وأتيت أطمئن عليك، قال: اذهب وأت بها، قال: فذهبت، وأتيت بالمعاملات، فقرأت عليه معاملة طويلة تتكوّن من اثنتي عشرة صفحة، ثم بدأت بكتاب الفتاوى، فقرأت عليه أربعين صفحة، فجاء ابنه عبدالله، فبدأ يكمل القراءة عليه إلى الصفحة الخمسين، ثم جاء المرضى والأطباء ليطمئنوا على الشيخ، وينظروا إلى نتائج الفحوصات، فقالوا للشيخ: تحسنت حالتك والحمد لله، فقال لهم: ما بقي لكم عندنا شيء، ولم يبق لكم في

حاجة فهل تأذنون لي بالذهاب، فقالوا له: لا بأس فخرجنا من المستشفى، ونحن نظنّه يزيد الذهاب إلى البيت، فقال له ابنه أحمد: سنتجه إلى البيت إن شاء الله، فقال له: لا، اتجهوا إلى المكتب، فذهب إلى مكتبه، فقال له ابنه أحمد: إذا تنتظرك في البيت بعد صلاة الظهر مباشرة - إن شاء الله - قال له لا سأتّيكم في الموعد المعروف (الثانية والنصف) - إن شاء الله -.

يقول الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز الشري - أحد تلامذته -: «وكلما دخلت عليه في مجلسه إذا بالناس ملتفون حوله كل منهم يزيد القرب من الشيخ وهم من بلاد شتى فهذا رئيس مركز إسلامي وذلك أمين جمعية إسلامية وآخر داعية في بلد كذا وكذا من بلاد الغرب والشيخ يعرفهم بأسمائهم ويسألهم عن الدعاة في بلادهم وعن الجهود التي يقومون بها هناك وعن أحوال المسلمين ومدى انتشار الإسلام والعوامل التي تحول بينه وبين الانتشار وعن المرأة المسلمة وما تواجهه في تلك البلاد، فيوصي هؤلاء الدعاة ويوجه المسلمين في بلادهم بالتمسك بالإسلام وتقوى الله عز وجل واللين والرفق في الدعوة والتركيز في الدعوة على العقيدة الصحيحة وتبيينها للناس كما يوصيهم بسماع إذاعة القرآن الكريم التي تبث من المملكة وخصوصاً برنامج نور على الدرب، فيكرر هذه الوصية دائماً لما وجد من استفادة الناس من هذه الإذاعة المباركة عبر ما يصله من رسائل من أقطار العالم وما يذكر في هذا رسالة وصلت إلى سماحته من أحد مستمعي برنامج نور على الدرب وهو مقيم في سجن في إحدى الدول الغربية يقول فيها إنه يسمع برنامج نور على الدرب وقد استفاد منه كثيراً ويطلب عرض رسالته على سماحة الشيخ ليعلم سماحته مدى استفادة الناس من علمه حتى الذين في السجون.

أما الرسائل التي تأتي إليه في منزله أو عمله من أناس خارج المملكة يطلبون كتباً في العقيدة وأحكام الدين فإن سماحته يوصي بإرسال الكتب

المفيدة لأصحابها لكي يستفيدوا منها وبالفعل يتم إرسال الكتب والرسائل الصغيرة لهؤلاء الإخوة المسلمين المتعطشين لهذه الكتب ولأمثالهم لكي تنير لهم الطريق بتوفيق من الله - جلا وعلا - فكم وكم أرسل سماحته من الكتب والرسائل المفيدة للإخوة الذين يطلبونها، فجزاه الله خيراً وجعل هذه الأعمال في موازين حسناته يوم القيامة^(١).

❑ وإن من أعظم الأعمال في حياته - رحمه الله - فتاواه في مسائل الطلاق على وجه الخصوص، كم جمع الله على يديه من الأسر، وكم أقام من كيان تحطم، ومنزل تهدم، وجمع الله به قلوباً تفرقت، وبيوتاً تشتتت، وأسراً تمزقت، عشرات الآلاف من المطلقين الذين كان لسماحته الفضل بعد الله تعالى في إعادة حبل الود بينهم، ورأب صدع نفوسهم، ولسوف يبكي الناس على فقده دماً، فإنه لا يكاد يمر يوم لم تأت فيه مسألة طلاق إلى آخر يوم من حياته - رحمه الله -.

❑ في الليلة التي توفي فيها أفتى في مسألة طلاق، وقبل وفاته ببضعة أيام جاءني رجل من مسافة بعيدة يشكي ويبكي، طلق زوجته ولديه ثمانية أبناء، وسبق له أن طلقها قبل ذلك، جاءني وقلبه ممزق، دامع العين كاسف البال، ومكدر الخاطر، وكان يخشى أن يفتي له الشيخ بعدم جواز مراجعته لامراته، وكان ذلك في حرّ الظهيرة الحارق، قلت له: أين الزوجة، قال: موجودة في السيارة ومعها وليّها، قلت: اتني بهم إلى المكتب، فأخذت أقوالهم كاملة، وكتبت ما جرى بينهم، وكانت مشكلة كبيرة ملأت صفحتين كاملتين، فقلت له: انطلق الآن إلى سماحة الشيخ في الطائف، وصل المغرب، ثم اعرض أمرك عليه، وقل له: إنني قادم من سفر بعيد لكي ينهي أمرك في الحال، وقبل صلاة العشاء، وإذا بالرجل يهاتفني على الجوال ويكاد

يطير من الفرح، تلثم لسانه، وارتبك كلامه من الفرح وأخذ يدعو لي ويدعو للشيخ بدعاءٍ طويل، ويقول: أبشرك الشيخ أفتى برجوع زوجتي إلى عصمتي.

❏ وكَم من القصص التي كنا نراها عند سماحته - رحمه الله - يأتي أصحابها ينثرون دموع الحزن، ويبكون لوعة المصيبة، فيخرجون من عند سماحته بدموع تذرِف، ولكن من نوع آخر، إنها دموع الفرح والسرور والغبطة بفتواه التي أعادت الأمل، وزرعت الرضا.

طفح السرور عليّ حتى من عظم ما قد سرّني أبكاني
* حَسَن ظَنَّهُ بالناس :

من أعظم وأجمل ما ترى في هذا الشيخ: حسن الظن بالمسلمين، فالأصل عنده حسن الظن، ولا يحب التشكيك في أحد من المسلمين أو تخوينه، أو الكلام فيه بما لا يرضي حتى ولو بلغه أنه أخطأ عليه شخصياً أو نال منه، بل ذلك أدعى لجعله لا يهتم للأمر أصلاً، جاءه بعض طلبة العلم فشكوا إليه أحد الناس، وبينوا أخطاءه وبعض المخالفات عنده، فبدأ الشيخ يملئ كتاباً لتوبيخه ونصحه وتوجيهه، وفي أثناء الكتابة، قال أحدهم: وإنه يا شيخ يتكلم فيك، وينال منك فقال الشيخ للكاتب: قف، وترك الكتابة خشية أن يقال إن الشيخ ينتقم لنفسه.

* القيام بالمسئولية، والصدق في حمل الأمانة :

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

● ويقول عليه السلام : «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذّب، وإذا وعد أخلف وإذا اتّمن خان» (متفق عليه).

□ ولذلك كان سماحة الشيخ من أبعد الناس عن هذه الصفات، وهو - رحمه الله - يعرف المنزلة العظمى لمن أدى الأمانة، وقام بالواجب، ونصح للأمة، ويعرف قوله عليه السلام : «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة مطعم»^(١).

والشيخ - رحمه الله - يعلم أنه مسلم، وأن عليه أمانة عظيمة، ثم هو عالم، وعليه أمانة عظيمة، ثم هو موظف مسئول يتقاضى أجره فعليه أمانة عظيمة، فأتى بما طلب منه، وأضعاف أضعافه، وقت الدوام الرسمي لا يخرم منه دقيقة، كان إذا كان في اجتماع، أو عمل خارج إدارته، ففرغ منه يسأل عن الساعة، فإذا بقي ولو نصف ساعة على نهاية الدوام يعود إلى مكتبه، ويكمل بقية دوامه، وهذا والله رأيته أنا عدة مرات، ومع ذلك فوقت الشيخ كله دوام، ويومه وليته في خدمة المسلمين.

□ إن صاحب الحاجة لا يتعب في الوصول إلى الشيخ، يأتي الإنسان لديه مشكلة أسرية، أو قضية شخصية، أو فتوى شرعية، فإن لم يجد الشيخ في العمل، ذهب إلى بيته، فتغدى معه، وعرض عليه أمره، فإن لم يكن قابله في العصر، وقضى له حاجته، أتى إليه من المغرب إلى العشاء في بيته، فإن لم يمكنه أتى إليه بعد العشاء، فتعشى معه، وعرض قضيته، فإن لم يمكنه أتى إليه بعد الفجر، فهو يجلس إلى الساعة الثامنة تقريباً.

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم في «المستدرک»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو، ورواه ابن عدي وابن عساكر عن ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٧٣)، و«الأحاديث الصحيحة» رقم (٧٣٣).

□ لقد رأيته - رحمه الله - في الأيام الأخيرة من حياته، وهو على عمله الدؤوب، وصبره العظيم، بل يزيد ولا يتقص، في ليلة من الليالي صلى المغرب ثم ألقى درساً، ثم صلى العشاء، ثم عاد إلى البيت ليستقبل عدداً من حالات الطلاق، استنفدت من وقته أكثر من ساعة، ثم قام لموعد مع عدد من الأطباء بالجامعة لديهم أسئلة واستفسارات، ثم انتهى منهم، وألقى محاضرة في مدينة أخرى عن طريق الهاتف، كل هذا الجهد والعمل فقط من المغرب إلى ما قبل النوم دعك من بقية النهار، وهو مريض منهك، المرض يفتك بجسمه، والوباء يلتهم أحشائه، ولم يبق منه إلا جلد على عظم، وفي الليلة التي توفى فيها - رحمه الله - كان جالساً للناس من المغرب للعشاء، وأفتى في بعض المسائل بعد العشاء، وجلس إلى أهله وأبنائه، ثم في الثالث الأخير من الليل وهو في مصلاه يذكر ربه ويسبحه ويحمده ويمجده، سافرت الروح إلى بارئها، وغادرت الروح الطاهرة هذه الدنيا بأتعابها وأوصابها، سافرت في ليلة الخميس؛ لأنه كان يستحب السفر كل اثنين وخميس فسافر إلى مولاه، وأجاب رباً دعاه - رحمه الله، رحمه الله، رحمه الله -^(١) ١. هـ.

هل ما روينا وما يُروى لنا صور من الحقائق أم ضرب من الخُلم
نعم، فكل معاني الفضل ماثلة فيكم وكل سمات النيل والشيم

□ يقول الشيخ ناصر الزهراني تلميذ الشيخ وإمام مسجده: «الشيخ هو الصورة المشرقة للإسلام وأنا أعني وأعني ما أقول، إذا أردت أن تنظر إلى الإسلام واضحاً نقياً، بيناً جلياً، فانظر إلى حياة هذا الشيخ وسيرته بمعنى أن الخصال المحموده، والمثل الطيبة التي أمر بها الإسلام خير من يطبقها في هذا

(١) «إمام العصر» باختصار (ص ٥٥ - ١٧٥).

الزمن، وخير من تمثلت في حياته ممن رأينا هو سماحة الشيخ - رحمه الله، كان رسول الله ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس، وأفعاله وأقواله سنة للناس، فجاء الشيخ - رحمه الله - فكان قرآنًا يمشي بين الناس، وتمثل سنة المصطفى ﷺ فأصبح قرآنًا وسنة يمشي بين الناس، فوالله ما رأيته في يوم من الأيام متلبسًا بأمر معيب، أو ماضيًا في تصرف مشين، أو مخالفًا لسنة، بل كان شديد الحرص على تطبيق السنة بحذافيرها، في كل أموره كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها»^(١).

*** أقوال في الثناء على إمام أهل السنة والجماعة في عصرنا وقرننا سماحة الإمام الشيخ ابن باز:**

□ قال عنه الدكتور محمود بن محمد سفر وزير الحج: «لقد سئل العرب: كيف ساد فيكم فلان؟ قالوا: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا. وعندما يسألنا العرب والمسلمون كيف ساد فيكم ابن باز؟ نقول لهم: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا»^(٢).

*** ولسوف يذكر الزمان:**

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين... وبعد.

ففي فجر يوم الخميس السابع والعشرين من شهر الله المحرم من عام عشرين وأربعمائة وألف، فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة الله ورضوانه بإذنه سبحانه علم من أعلام الأمة، وبحر من بحارها، وحبر من أحبارها إمام أهل

(١) «إمام العصر» (ص ١٧٤).

(٢) «جريدة الشرق الأوسط» - العدد ٧٤٧٧.

السنة، وحامي عقيدة السلف، حجة هذا العصر، شيخنا ووالدنا سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

❑ ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على هذا الفراق لمحزونون، نسأل الله العليّ القدير ألا يحرمنا أجره، ولا يفتتنا بعده، وأن يغفر لنا وله، اللهم اغفر له، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين.

❑ لقد طويت صفحة من صفحات تاريخ الإسلام، صفحة من صفحات العلم والفضل، التقوى والورع، والزهد والعفة. لقد قال عنه الكثير كثيرون، ولسوف يقولون ثم يقولون، وإن مؤلفاته وآثاره تقول أكثر وأكثر.

❑ لقد دفنت في مقابر العدل بمكة المكرمة الطاهرة مرجعية من مراجع الفقه والفتوى، وعلم من أعلام الحديث والسنة، ونموذج شامخ من نماذج التقوى والصلاح، برحيله - رحمه الله - حدثت بأهل الإسلام ثلثة واسعة وفتحت ثغرة عميقة، يدرك المتأمل غورها إذا تذكر غزارة علم الفقيد، ويهوله عمقها حين يتأمل اقتران العلم بالعمل اقتراناً أتعب فيه الفقيد من بعده. لم يتوقف يوماً عن طلب العلم والاستزادة منه، ولم يتوقف عن تعليمه وبذله، ثم لم يتوقف فيما رأينا وعلمنا لحظة عن الممارسة العملية في لحظه ولفظه، قوله وفعله، في البيت والمسجد، والمكتب والمركب، والحضر والسفر، فهو في كل أحواله يربي ويوجه، ويعظ ويرشد، ويعلم ويفتي، ويدعو ويفقه.

❑ جانب من جوانب عبقرية الشيخ وتميزه يتمثل في الحياة الزاهدة

الورعة التي أخذ بها نفسه، لك أن تتخيل رجلاً يعيش فيما عهد من حياته أكثر من سبعين عاماً - لم يحسب من ذلك سنوات الطفولة والصبا - على حال واحدة لا تتغير من هذا التماسك العجيب والتمسك المتين، والموقف الحازم الصارم من الدنيا، لم يرفعه في أعين الناس إلا صغر الدنيا في عينه، هذه الدنيا التي لا تذكر في مجلسه قط فكل مجلسه قال الله عز شأنه.. وقال رسوله محمد ﷺ، وقال أهل العلم، قراءة وتحديثاً شرحاً وبسطاً ووعظاً وتوجيهاً واشتغالاً بهموم المسلمين العامة والخاصة، يحل مشكلاتهم، ويسعى في حوائجهم، ويشفع فيما لا يستطيعه بنفسه. تتجلى عبقرية هذا الإمام في الحياة التي عاشها في منزله بين المساكين والغرباء، والتي لم تعهد لأحد مثله في هذا العصر، يستقبلهم، ويحتفي بهم ويدنيههم ويتفهم مشكلاتهم، ثم يسعى في حلها مهما كان نوعها، ثم يلتفت كل من حضر حول مائدة الشيخ ليلتقي على هذه المائدة المستديرة الغني والفقير والوجيه والوضيع، والكبير والصغير.

□ كما تتجلى عبقرية الشيخ - رحمه الله - في هذا الاحترام الكبير والود العظيم الذي احتفظ به مع الموافق والمخالف. لم يعرف عنه كلمة نابية ولم يعهد عنه لفظ جارح مع كثرة رسائله ومخاطباته ومكاتباته ومقابلاته فهو راد ومردود عليه، متصد لبيان الحق لا يسكت على باطل، ولكنه كان محافظاً على سمته ووقاره وعفته وأدبه في قلمه ولسانه؛ لأنه يقرن العلم بالعمل فعنده ورع حاجز، وتقوى حافظة، ولا نزكية على الله، لقد أبقى الله له الحب والود في قلوب الناس في احترام ينذر أن يكون له مثل، وما ذلك بعد توفيق الله، إلا لصحة المعتقد، والسلامة من الهوى، والحرص الشديد على تحري الحق مع ما انضوت عليه نفسه من حب الخير للجميع، بل حب إصابة الحق للجميع.

❏ تتجلى عبقرية الفقيه - رحمه الله - فيما رسمه وطبقه من علاقة متينة حكيمة وقورة بين العلماء والدولة، والراعي والرعية، الدولة وفقها الله وسددها تعرف علمه وفضله وغايته وحكمته، وهو يعرف وظيفته ومزنته، هبت عواصف، وهذرت بحار، وهاجت أمواج، فكان هو بإذن الله الصاري المسك بشراع السفينة، نحسب أن الله قد وفقه وألهمه لما علم من صلاح نيته وصحة مسلكه وصدق نصيحته ونفاذ بصيرته.

❏ تتجلى شخصية الشيخ - رحمه الله - بالنظر فيما يتعرض له العالم الإسلامي وغير الإسلامي من غزو فكري، ومحاولات اختراق أدت في بعض صورها إلى حالات من الغلو والتشدد أو حالات من التسبب والتحلل مع اختراق لإضعاف الولاء للدين والانتماء للعقيدة الحقّة.

❏ إن مواجهة هذه الحملات ضعفت في كثير من الجهات في مواقع من العالم الإسلامي تحت تأثير الزخم الإعلامي أو الضغط السياسي، فتجلت بفضل الله مدرسة الشيخ المتمسكة بدينها بقوة لتستبقي ملامح الأمة وقسماتها بعيداً عن الانهيار والانبهار والتأثر بمد الغزو الثقافي والفكر الغربي العلماني، لا تأخذ في هذا الباب لومة لائم، لا يبالى أن يقع الأمر والنهي موقع الرضا والقبول أو موقع الكراهية والاعتراض، ومن أجل هذا لم تكن له - رحمه الله - جناية على الدين أو الأمة أو الحكام.

❏ توازن عجيب في فهم القضايا واستيعابها، وإعطاء الحلول لها في فهم لدرجاتها وأهميتها في الشؤون العامة والخاصة في السياسة والحكم والعقيدة والفقه والدعوة والشؤون الاجتماعية. لقد كان - رحمه الله - مدرسة في حكمته وتعامله الرصين والإيجابي مع هذه القضايا الكبرى منها والصغرى. هو نموذج لما تحظى به هذه البلاد المباركة من علماء مخلصين ناصحين يقدمون النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم،

فتركوا علماً نافعاً وأثراً طيباً، وقدوة حسنة - ولله الحمد - هو نموذج لما يوليه ولاية الأمور في بلاد الحرمين الشريفين من محبة لأهل العلم واحتفاء بهم وبنصحهم ودعوتهم ووعظهم، لقد سعدت بهم وسعدوا بها فارتقت هذه البلاد في موقعها المتميز في البلاد الإسلامية بمثل هذه السيرة والانسجام والتوافق الذي نهنا به، ويتناقله القاصي والداني بين العلماء والحكام.

□ في هذه البلاد ارتقى شأن العلماء واستقر الحكم، وطبقت الشريعة في أرض الله على عباد الله، ففتحت الأمة صدرها لمحبة حكامها، وبذلت لهم الطاعة لأنهم ساسوا الناس بسياسة الشرع، وبمثل هذا الانسجام والالتزام والمحافظة أصبح المجتمع مسلماً في دولة مسلمة متمسكاً بإسلامه معتزاً بدينه عصياً على الذوبان، محمياً بإذن الله من الضياع والتحلل والانهيار، إن غياب شيخنا - رحمه الله - يخلي ساحة المرجعية الإسلامية في العالم الإسلامي من مثل هذه الشخصية الفذة، ويتأكد هذا الغياب ويعظم حجمه في النفوس كلما تذكرنا غزارة هذا العلم الذي دفن، والصلاح الذي اختفى والورع الذي توارى، والصدر الواسع الممتلئ بالحب والنصح والصدق والشفقة على الأمة كلها، كل ذلك واريناه في مقابر العدل في مكة المكرمة الطاهرة، ولكن حسن عزائنا بربنا وبما هدانا إليه سبحانه من الدين الحق والرضا بمر القضاء، فكل نفس ذائقة الموت، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وينخف الأسي، ويحسن العزاء، إذا ما نظرنا إلى ما تركه - رحمه الله - من تراث وخلفه من علم، وربى من تلاميذ، ومن حسن العزاء ما نعيشه في هذه البلاد المباركة في حكم بشرع الله، وسياسة الناس بدين الله، والذي انبثق منها هذه المنزلة المحفوظة لأهل العلم فهي التي أكرمت ابن باز حياً وميتاً، وكرّمت إخوانه وسلفه وخلفه من أهل العلم وطلبته...»^(١).

* الإمام العلامة :

□ بقلم الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد:

«الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد،،،»

□ فإن الأجيال في كل عصر بعامة، وفي هذا العصر بخاصة محتاجة حاجة ماسة إلى التعرف على الشخصيات البارزة في مجتمعهم، المعاشة في واقعهم، الشخصيات التي يقوم عليها - بإذن الله - البناء ويرتسم بسيرتها المنهج.

يحتاج النشء إلى التعرف عن قرب على هؤلاء الرجال الذين يحملون المسؤولية بقوة واقتدار، وكفاءة واصطبار، يحملون على عواتقهم أمانة الحفاظ على دين الله وتربية عباد الله في جمع عجيب بين الحب لهم والغيرة عليهم. □ منطلقهم في ذلك الدين بكل شموله الإيماني والفكري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، دين الدنيا والآخرة جميعاً، الإيمان والعمل الصالح معاً، إنهم علماء المساجد والمنابر وشيوخ الميادين والعامة.

□ وصاحب السماحة الإمام العالم العلامة الحبر والبحر والدنا وشيخنا الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - رحمه الله رحمة واسعة ورفع درجاته أعلى منزلة أنموذج من هؤلاء، علم يتسنى الذروة في الرجال ويعلو القمة في الأفاضل ديناً وورعاً وعلماً وفضلاً وكرماً وجوداً، ولا أزكي على الله أحداً وما شهدنا إلا بما علمنا وعلم البواطن موكل إلى الله وحده فهو أعلم بمن اتقى، وهو أعلم بمن هو أهدي سبيلاً.

□ لقد عاش الشيخ - رحمه الله - حياة علمية دعوية متوازنة يتوافق فيها الفكر مع العمل ويقترن فيها العمل بالسلوك حياة تجلّى في توازنها الفكر

الثاقب، والعطاء النير، والإسهام العميق، والمدد الغزير في ميادين الحياة كافة. امتداد في العلم والدعوة والتربية والتوجيه شمل أصقاعاً عريضة من العالم الفسيح من خلال أثره الفكري المقروء والمسموع ومشاركاته الميدانية في المؤتمرات والمجامع والحلقات والمنابر والمجالس واللجان، رئاسة وأستاذية وعضوية، إنه رجل شاء الله أن يقع على كاهله أعباء جسام في الدعوة والإرشاد والبحث العلمي والإفتاء وخدمة قضايا المسلمين كافة.

إن العطاء والتوازن والثبات في حياة الشيخ وسيرته - علماً وتعليماً ودعوة - جلي بارز من خلال الرصد للقنوات التي صبغت عطاء الشيخ وأطّرت أثره في إطار متميز، ولعل ذلك يتبين من هذه القنوات الثلاث الكبرى:

الأولى: الإيمان العميق والعقيدة الراسخة في الله ورسوله وكتابه ودين الإسلام وأثر ذلك في سيرته ومسيرته سلوكاً حسناً وورعاً وزهداً وصدقاً في اللهجة وحباً للناس وثقة متبادلة وعطفاً ورقة وكرماً وبذلاً.

الثانية: التأصيل العلمي المبني على أصلي الدين: الكتاب والسنة، فالشيخ يحفظ القرآن كله ويتدبره، ويحفظ الكثير من السنة ويفقهها، فهو دائم التلاوة للقرآن بتدبر، قدير في الاستحضار للسنة بتفهم، سريع الاستشهاد بهما، ملتزم للاسترشاد بنورهما مع دعوته الظاهرة في كل مجلس وناد للأخذ بهما والرجوع إليهما والحث عن مداومة قراءتهما ومطالعتهما، وحفظ المتيسر منهما.

الثالثة: روح الاجتهاد والاستنباط المنبثقة من الفقه المتين والدراسة الواعية والفهم العميق والفكر المستنير مع الإحاطة البيّنة بمقاصد الشريعة وأصولها وقواعدها وضوابطها.

□ ومن يسر ذلك ويرصده في حياة هذا الإمام يدرك وضوح الطريق

عنده وانسجامه مع نفسه، ومن حوله في توافق سوي وسيرة معتدلة ونهج قويم.

□ هذا هو الشيخ الذي يزكو شكره، ويعلو عند أهل العصر ذكره، ويعني الأمة أمره.

□ الصنعة عنده واقعة موقعها والفضيلة إليه سالكة طريقها، إن أوجز في الموعظة كان شافياً، وإن أطنب كان مذكراً، وإن نبه إلى ملاحظة فهو المؤدب المؤدب، وإن أسهم في التوجيه فهو الفهم، واضح البيان، صادق الخبر، بحر العلوم، نزهة المتوسمين، خصيم الباطل، نصير الحق، سراج يستضيء به السالكون، لين العريكة، أليف مألوف، يرفعه في أعين الناس صغر الدنيا في عينه، لا يتطلع إلى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، متحكم في سلطان شهوته لا تدعوه ريبة ولا يستخفه هوى خارج من سلطان لسانه، لا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما يعلم خارج من سلطان الجهالة، لا يقدم إلا على غلبة ظن في منفعة، لا يرى إلا متواضعاً، وإذا جد الجدد فهو القوي الغيور، لا يشارك في مراء، ولا يلوم إذا وجد للعذر سبيلاً، لم ير متبرماً، ولا متسخطاً، ولا شاكياً، ولا متشهيماً، لا يخص نفسه باهتمام دون إخوانه، واسع الشفاعة طويل يد العون. هذه المباحات في سيرته وإشارات إلى ظاهر حاله والله ربنا وربنا هو حسبنا وحسبه. فعليك أيها النبيل بالأخذ بمجامع المحاسن إن أطلقت وإن عجزت، فأخذ القليل خير من ترك الجميع، والله الحجة على خلقه أجمعين رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وجمعنا به في جنات الخلد إنه سميع مجيب الدعاء^(١).

* إمام في علمه قدوة في سلوكه :

□ قال الشيخ الدكتور عبدالوهاب بن إبراهيم آل سليمان :

اختار المولى جل وعلا إلى جواره الكريم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وقد كان - رحمه الله - عالماً فذاً، ومثلاً رفيعاً في العلم والسلوك، تابعت مآثره ونمت فضائله، اعترف له الجميع بالإمامة في العلم والقدوة في السلوك. يوم الخميس ١٤٢٠/١/٢٧هـ فخيم على الأمة الإسلامية سحابة حزن وألم عميق.

وصلى عليه جموع المسلمين في المسجد الحرام الذي شهد جمعاً من المصلين وكأنه يوم من أيام الحج، امتلأت ردهاته وزدحت ساحاته بالمصلين يلهجون بالدعاء والرحمة لإمام فقدوه لم يأل جهداً في بذل النصح والحب والشفقة عليهم طوال عقود من السنين ينفذ نصحه وكلماته إلى مسامعهم وقلوبهم في رفق ولين، وحب وعطف.

□ ووري جثمانه الطاهر بمقبرة العدل بمكة المكرمة في يوم مبارك يوم الجمعة ١٤٢٠/١/٢٨هـ تحمله القلوب لا الاكتاف، ازدحمت في تشييعه مسالك مكة وفجاجها في منظر وجمع عظيم من الأمة يعلوهم الحزن وتكسوهم الكآبة^(١).

□ جاهد - رحمه الله - لإصلاح حال الأمة ومصلحتها والسعي الحثيث لرأب الصدع بين الأفراد بالرفق واللين، وبما يقرب بين القلوب المتباعدة، والنفوس المتنافرة ما وسعه منطق، ينتصر للحق، ويوصي به في لهجة هي الحب والإخلاص، والغيرة على محارم الله وحدوده، فأصبح ما يقوله وينصح به مقبولا لدى الحاكم والمحكوم الكبير قبل الصغير، القوي قبل الضعيف.

□ منح - رحمه الله - حبه وعطفه وشفقته ونصحه للأمة دون تمييز.

شئون الأمة الإسلامية هاجسه، تمتلك عليه مشاعره وهمومه إذا التقى مجلس هيئة كبار العلماء فأول ما يتندر الحديث سؤاله عن شئون الأمة الإسلامية، يستكشف أخبارها في جميع أقطارها، يتلمس أبناءها إن كانت خيراً حمد الله وأثنى عليه وإن كانت غير ذلك أحزنه أمرها، ودعا الله أن يكشف الغمة عنها، وسعى ما استطاع من قول وعمل وجهد لما يرفع عنها الشدة، ويزيل عنها البأس.

انصرف عن الدنيا ومباهجها، ورغب في التقليل منها في وقت يحرص غيره على التكاثر عليها، والتكاثر منها فمنحه المولى جل وعلا القبول لهدى عباده، يطرق حديثه القلوب، وتتجاوب لمقالاته النفوس الراغبة في الخير، وصدق الأخ الأديب الدكتور سعيد السريحي:

«غابت الدنيا عن عينيه، وحضرت الآخرة في قلبه»^(١).

* وبكى العلماء أمام تواضعه:

□ قال الدكتور محمد بن سعد الشويعر مستشار سماحة الشيخ ابن باز: «إن فقدان الشيخ فقدان لأمور كثيرة تعلمناها منه وآداب رفيعة أخذناها عنه تطبعاً وحسن توجيه، فهو مع علمه الجم. مدرسة بأخلاقه، ومدرسة بحماسة للدعوة إلى دين الله، ومدرسة بحب الخير والمساعدة للقاصي والداني، في كل شئونهم بدون تمييز ومدرسة بالتواضع النادر مثله في هذا الزمان، يبين هذا عندما تأتي وفود من الخارج يريدون السلام عليه وبعد السلام والجلوس يسألني بعضهم: أين الشيخ ومتى يأتي حتى نسلم عليه ونشرح له قضايانا.. ولما أجيبهم بأنه هذا الجالس الذي سلّم عليهم وبمجلسه

المليء فئات من البشر من آفاق الدنيا بدون تفريق.. هذا الشيخ الذي وهبه الله خصالاً هي من سمو الإسلام ومثالياته.

ولقد بكت أمامي أكثر من شخصية إسلامية كبيرة بعد إخبارهم ليقولوا: «تعودنا حتى من علماء بلادنا التعاضم والمواعيد المسبقة.. إن هذا لا نظير له إلا فيما نقرأ في الكتب عن علماء السلف الصالح».

أما الكرم فناهيك بهذه الخصلة التي تتمثل في أكثر مما سمعنا عن كرماء العرب، فالسخاء والبذل والوجه البشوش سجايا تطبع بها منذ حدثته، وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئاً فلما قدر سخره للضعفاء، ولذوي الحاجات.. إذ راحته في كثرة الضيوف.. وتوافر أصحاب الحاجات وإدخال السرور عليهم.

□ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، عندما يختلفون في أمر وتكثر أمامهم الآراء يلجأون بالهاتف من أي منطقة لسماحة الشيخ عبدالعزيز فيصدرون عن رأيه، ويرضون بما يوجههم إليه.

□ والجاليات الإسلامية في أنحاء المعمورة رغم أنه لم يغادر المملكة طول عمره لا يحل قضاياهم ولا يريح قلوبهم من أي أمر يريدون، ولا يبذل الجاه لبناء مساجدهم ومراكزهم، أو يمددهم بالكتب إلا الشيخ عبدالعزيز بن باز.

ومع هذا فمن واقع معاشتي معه: فهو لا يصدر في أموره عن رأي شخصي، ولا من عاطفة ذاتية، ولكنها حماية الإسلام، والتوثق من الدليل الشرعي: آية أو حديثاً.. ثم استخارة الله سبحانه بعد ركعتين يدعو الله فيهما فإن ارتاح قلبه اطمأن وعمل بعد التوكل على الله.

ولذا فإن الشيخ عبدالعزيز أب رحيم وعطوف على اليتامى والمساكين، وعلى الأراامل والفقراء، وعلى المحتاجين ومن لا تصل كلمتهم إلى المسئولين

فيوصلها بشفاعة ودعوات للمشفوع تجعل قلبه يرق، ويده تسخو ولعل الله سبحانه قد حقق له حديث رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «إن الله إذا أحب عبداً جعل حبه في قلوب الناس» وما أحصي كثرة الخصوم الذين يعتذرون إليه كتابياً وهاتفياً ومشافهة عن النيل منه سابقاً والتحدث فيه فيدعوا لهم ويسامحهم ويعفو عنهم وعن من لم يعتذر...»^(١).

* رحمك الله أبا عبد الله :

□ قال مدير عام مكتبه الشيخ الدكتور عبد الله بن حافظ بن حكيم:
طلعت علينا شمس النهار وقد فارقتنا شمس العلوم والمعارف قبل أن ينبلج نهارها ويشع ضوءها، وحل يوم الخميس وقد ودعنا فيه زينة الأيام وإمام الزمان. يوم الخميس هذا اليوم الذي كان لا يختار السفر إلا فيه، أتم الله له الاختيار فكان سفره الأخير فيه، فإلى خير مستقر إن شاء الله. والحمد لله على ما قضى وقدر.

نذكر الوالد الحبيب بأعمال الخير التي قضى حياته فيها، وعطر تاريخ أيامه بأريجها، جهد دائب لا يعرف الإجازات ولا الاستراحات، منقطع لنشر العلم ونفع الخلق في ليله ونهاره، حتى السويقات الأخيرة من حياته، عمر مديد وعمل حسن، فليهنأ الوالد - أبو عبد الله - بالعمل الطيب والذكر الحسن. أجزل الله له الأجر، وأعظم له الثواب، وتقبل منه، وجزاه خير ما جرى به عبداً صالحاً.

□ نذكر مجالس الفتيا: يجيب كل سائل ويحل معضلات المسائل، وما رأيت أسرع منه إجابة، ولا أوقع على المقصود؛ جواب بلا إطالة، مفتح لا يذفع، قد أحاط بالأدلة، وجمع الأقوال، فانقطعت بجوابه الحجج. قنع

الناس بكلامه فلا تردد بعد قوله، ولا جهل بعد فتواه. أجمع على قبول قوله العلماء والعامة. فكان المرضي عند الجميع. علمٌ واسع، ورأيٌ شديد، وعقلٌ راجح، وفراصةٌ صادقة. إن علم أجاب وإن أشكل عليه الأمر لجأ إلى الله داعياً ذاكرًا مسبِّحًا مستغفرًا متضرعًا أن يلهمه الصواب، فنعم العالم الورع التقى الزاهد.

□ نذكر المساجد: المساجد التي سعى في بنائها بالتعاون مع ولاية الأمر وأهل الخير التي تعد بالآلاف في داخل المملكة وخارجها. كان آخرها ثلاثة مساجد في يوم وفاته على مكتبتي قد بدأ - يرحمه الله - في إجراءات تعميرها. حرص على ذلك، وفرغ لهذا العمل موظفًا يتابع معاملاتها في مكتبته الخاص، ووقتًا يدرس أوراقها فيه.

نذكر حرصه على إعمارها بحلقات العلم التي أقامها فيها جُل حياته. يبدأ درسه بعد صلاة الفجر إلى أول الضحى، دروس متعددة تملو على دروس الجامعات والمدارس العليا في عددها ومستواها. هو الشيخ والمعلم فيها.

نذكر حثه على أداء الصلاة فيها جماعة. وعدم التهاون، ولم ننس كلما ردد المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح دعوته الدائمة إلى إجابته: البدار البدار، الإسراع الإسراع. أذكر وصيته يوم جثت أقرأ ورقة فور انتهاء المؤذن من الأذان. فسأل: لم أسمع الأذان، هل أذن؟ فقلت: نعم الآن أذن، فقال: أتعمل وقد أذن؟ الصلاة الصلاة..

□ خمسة وعشرون عامًا: لم أره فيها إلا ساعيًا في سبيل الخير، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، ناصحًا لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، مجيبًا لسائل، مغنيًا للمهوف، معينًا لذي الحاجة^(١).

* في وداع الشيخ :

قال عنه الأديب الشاعر غازي القصيبي :

إذا قيل : «الشيخ» عرف الناس الرجل المقصود..

جاءه اللقب من الجموع..

لم يحصل عليه من الجامعة..

ولم تُنعم به هيئة..

ولم يصدر بتحديد مرسوم..

كان - الشيخ - كبيراً..

وكان كبيراً جداً..

كان كبيراً بعلمه..

وكان كبيراً جداً بتواضعه..

وكان الشيخ كريماً..

وكان كريماً جداً..

كان كريماً بماله..

وكان كريماً جداً بنفسه..

وكان الشيخ طيباً..

وكان طيباً جداً..

كان طيباً.. لا يخدع أحداً..

وكان طيباً جداً.. لا يغضب من أحد خدعه..

كان بعض اجتهاداته موضع خلاف..

أما نزاهته الفكرية كانت محل إجماع..

قولاً واحداً..^(١)

(١) «إمام العصر» (ص ٣٢٠ - ٣٢١).

* ذكرياتي مع فقيه الأمة :

□ قال عنه الشيخ عطية محمد سالم وقد زامله منذ خمسين عاماً:
 «إن الحديث عن الشيخ ابن باز بالنسبة لي شيء طويل المدى بعيد؛ فقد عرفته منذ السبعينات عندما كان قاضياً في الدلم أما صلتني به عن قرب فكانت عندما كنت طالباً ومعلماً في كلية الشريعة، وقد تتلمذت على يديه الفقه والحديث، ثم زاملته وصاحبته سواءً في منزله أو في المسجد بعد تخرجي من الكلية في الرياض وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كمساعد له بتكليف من الشيخ محمد بن إبراهيم وقد كنت حينها مسئولاً عن شئون التعليم وهذا ما زاد صلتني به عمقاً.

● مآثر سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز يرحمه الله كثيرة هل تروون لنا بعضاً من هذه المآثر من خلال قربكم من سماحته في فترة سابقة؟
 لا أعتقد مهما تحدثنا عن الشيخ ابن باز أن نوفيّه حقّه في التعريف به ولكن كان يرحمه الله علماً عالمياً وطوداً أشم وجبلاً يتميز بتوحيده وحلمه وكان لا يتحزب ولا يتعصب في البحث وفي المسائل الأخلاقية إنما يبحث بمقتضاه الخاص ويتكلم فيه برأيه. أما النواحي العلمية فكان بحرّاً وله من الذكاء والذاكرة ما لم تجده في غيره وقد أثبتت كثيرٌ من المواقف هذه الفطرة التي وهبها الله إياها من الذكاء والذاكرة.

● هل يتذكر فضيلتكم بعضاً من هذه المواقف؟

الشيخ عبدالعزيز بن باز كان علامة في الحديث والفقه والتوحيد وكان موسوعة في هذه العلوم ومبرزاً فيها.. وعندما كنت أتعلم على يديه أتذكر أنه كان يشرح لنا في درس الحديث موضوعاً من المواضيع وكان يدرسنا في الفقه بنفس الباب على شيء آخر فقلت له ذات مرة يا شيخ أنت تورد أشياء

في الحديث لا توردها في الفقه وتقتصر في الفقه على أشياء تذكرها في الحديث فما هي وجهة نظرك؟ فقال سماحته يرحمه الله: الحديث ليس له حدود ويقدر ما أعطاك الله من الفهم وأقوال السلف سواء كان رأي الخابلية أو غيرهم من علماء الأمة أما الفقه فأنت مقيد بكتاب الله في مذهب وكمدرس لهذا الكتاب ليس لك أن تخرج عنه عندما تشرحه وتبينه حتى الحد الذي يستوعبه الطالب. وذات مرة حصلت قضية من الشيخ أدهشت كل الحاضرين لإحدى المحاضرات الاجتماعية في الجامعة والتي حضرها سماحته وجاء المحاضر ليلقي محاضرتة ومعه سبورة وكتب عليها اسم المحاضرة والنقاط الخاصة بها والجزئيات المتعددة لهذه النقاط ثم أخذ يشرحها مفصلة بجزئياتها في ساعة ونصف وبعد المحاضرة طلب من الشيخ ابن باز أن يعلق عليها فذكر سماحته نقاط المحاضرة الست وجزئياتها وعلق على كل نقطة بالتفصيل ولم يترك شيئاً منها وهي كما ذكرت لك محاضرة اجتماعية وليست فقهية. واندھش الجميع من ذاكرة سماحته القوية وذكائه في استيعاب المحاضرة فلو أننا كنا موجودين لما استطعنا أن نعلق على أي نقطة دون النظر إلى السبورة وتذكر النقاط.

□ كما أنه يتميز بأخلاقه وسماحته وكرمه وكان يأتيه الفقراء والمساكين لطلب المعونة فلا يتردد أن يعطيهم، وكثيراً ما طلب من صندوق الجامعة سلفة تخصم من راتبه ليعطيها هؤلاء الفقراء الذين قصده و مرة جاءني وقال لي: أريدك أن تعطيني سلفة قدرها مائتي ريال فضحكت وقلت له: الشيخ ابن باز يأخذ سلفة من عطية سالم، ثم أردفت لو كان المبلغ لك لأعطيتك عشرة آلاف اذهب وخذ من الصندوق قال لي: عندما ذهبت إلى الصندوق أخبرني أمينه أن راتبي متته وأني مدين للصندوق للشهر الذي بعده بـ ٤٠٠ ريال.

هذا هو الشيخ ابن باز كان يقترض من الصندوق ولم يبق شيء من راتبه ومدين للشهر الذي يليه من أجل أن يعطي الفقراء والمساكين جاء يتسلف ليعطي غيره. نوادر كانت في الشيخ ابن باز يطمع أي واحد منا أن يصبح مثله^(١).

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة	وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين نادب	وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب	وفي تونس ما شئت من حسرات
لقد كان مقصود الجوانب أهلاً	تطوف به الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة	ومطلع أنوار وكنز عظات

* الإمام العالم العامل سماحة الشيخ ابن باز:

□ قال عنه الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقال الظاهري:

«أهم وأجلى وأنفع ميزة للشيخ أنه علم ليعمل، وتوسَّع في العلم الأخرى النافع، ولم يخلط معه شيئاً من علوم الدنيا إلا ما كان من علوم الآلة لخدمة الشريعة كالنحو... وكان - رحمه الله - لا يلحن في حديثه العامي، ولا تدور العامية على لسانه... ولم يطلب العلم لمجرد التلذذ والمتعة والمثاقفة والمسامرة والشهرة، بل كان علمه - كما أسلفت - تعبدًا في ذاته، ولأداء العبادة وفق الأمر الشرعي، ثم صار العلم لذته لأن لذته في العبادة.

□ وأبحر في العلم الشرعي حتى كان بآخره مرجع العالم الإسلامي، وكان كل متورِّع لا يستريح إلى غير فتواه.

□ وأما العمل فكان مثمرًا متبعًا سمت كبار الصحابة ومن ندرت سيرته

من التابعين ومن بعدهم كالإمام أحمد رضي الله عن جميعهم، فأخذ على نفسه الحلم طبعاً وتطبعاً ما رأيته منفعلاً قط إلا مع الكتبي - رحمه الله - ناشر كتاب تحفة الأحوزي لسبب لا أذكره الآن، وغاية انفعاله أنه طلب من الكتبي اليمين على أن ما حدث لم يكن يعلمه.. وأخذ نفسه بالجد في الدعوة إلى الله، والصبر على الأذى في ذلك.. وأخذ على لسانه ووقته ومجالسه البعد عن الفضول، والقول الجارح، والفحش، والصلف والصخب، والاشتغال بغير العلم الشرعي، والانتقام للنفس أو الغضب لها.

❑ ويقول: «العالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض.. هذا الصنف أندر من الكبريت الأحمر، وصدرهم في العصر الحديث فيما نعلم، وكمال العلم عند الله - سماحة الفقيه ابن باز - رحمه الله».

وقال: «لقد بلي الشيخ بمتدينين متطرفين زبوا قبل أن يحصرموا، وأظهروا التعسير والتحسير بدعوى الاجتهاد، ولم يمر بهم من العمر والتجربة ما يُظهر علمهم وورعهم وتأهلهم للاجتهاد.. ويقرنون مع دعوى الاجتهاد الدعوى بأنهم على مذهب الشيخ.. وكذبوا في ذلك، وإنما حملوا تورعه لنفسه على أنه يوجب ذلك على الناس».

❑ وبلي - رحمه الله - بآخرين من ذوي الدخول التاريخية والفكر السياسي باسم الإسلام، فاتهموا سماحته بالمداينة ومصانعة ولاية الأمر وكذبوا في ذلك أيضاً، وإنما كان مقياس المصارحة عندهم: أن تلعلع المنابر بثلب المسئولين، والتشهير بالحق والباطل، وجحد الإيجابيات، وتضخيم السلبات - التي هي معادلة بين المصالح والمفاسد، وأن يكون الداعية خطيب فتنه.. وكرم الله سماحة الشيخ عن ظنون هؤلاء، فكان - رحمه الله - في منتهى المصارحة لولاية الأمور من ملوك، وأمراء ووزراء.. لا يدهن، ولا

يُجْمَعُ بِالنَّصَحِ، وَيُخَاطَبُ الْقَلْبُ، فَيَجْتَذِبُ الْمُسْتَوِلُ تَرْغِيًّا وَتَرْهِيًّا بِنُصُوصِ الشَّرْعِ، وَيَذْكِي حِمَاسَهُ بِتَارِيخِ الدَّعْوَةِ الْمَجِيدِ الَّتِي احْتَضَنَهَا آلُ سَعُودٍ، وَنَصَرُوهَا، وَجَاهَدُوا مِنْ أَجْلِهَا، وَسَعَوْا فِي مَحْوِ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ بِمُقْتَضَاهَا.. يتصل برجاله مكاتبه، ومهاتفه، ويلح ويبالغ.. وكل هذا في السر ويكون شبه سر حين لا يعلم قيامه بالحسبة إلا من يمر عليه الإجراء من الموظفين.. وأما في العلن فكان يدعو للدولة، ويدعو إليها، ويتهل ويتهدج إذا حذر من الفتن.. وقد نُقِلَ إجهاشه بالبكاء وهو يدرس في المعهد العالي خائفًا من الفتن، ومرة في مسجد الإمام تركي الجامع الكبير وكان - رحمه الله - بورعه وبصيرته أن هذه الدولة مهما كان النقص والنقد دولة حق ورحمة وسنة في هذا العصر الممزق، وهي دولة السلف وترجيح المصالح.

❑ ومن صراحته في ذات الله أن أحد العوام الجهله ذبح الذبائح عند عجلات سيارة الملك سعود - رحمه الله - بالصفاء ابتهاجًا بقدمه، فقام الشيخ ابن باز يدور والدمع يخنقه، ويصبح بأعلى صوته: إنها حرام حرام لا يجوز أكلها.. ولما علم الملك سعود - رحمه الله - بفعل الجاهل غضب، وأظنها نقلت لحديقة الحيوانات، وشكر للشيخ موقفه»^(١).

❑ وقال الشيخ أبو الحسن الندوي عن الشيخ ابن باز أنه «أعجوبة زمانه»^(٢).

* كوكب غار ضوؤه:

❑ قال الشيخ الأديب عبدالله بن محمد بن خميس:

«الآن يستريح المجاهد!! الآن يلقي الشيخ عصا الترحال الطويل، الآن

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٩٧٣٠).

(٢) «إمام العصر» (ص ٣١٣).

تنقضي رحلة طويلة من الجهد والجهاد والمثابرة الدءوبة فيما ينفع العباد في دينهم ودنياهم.

❑ وبالأمس القريب نعى الناعي الشيخ الجليل، بالأمس فقط عادت مسيرة الوداع المليونية وقد وارت الثرى جثمان الشيخ الطاهر، عادت ضارعة رافعة أكفها بالدعاء الطويل للشيخ بالرحمة والمغفرة، وقد غفر الله للخطائين التوايين، فكيف بالشيخ الجليل وقد رفعت أكف جميع أهل هذه البلاد الطيبة المباركة في نهار يوم فيه ساعة لا يواتيها عبد وهو قائم يصلي ويدعو الله إلا واستجاب له الله، كيف بالشيخ وقد صلى عليه الملوك والأمراء والشيوخ والعلماء وعامة الشعب من تلامذته ومحبيه ومستمعي فتاواه وقارئى كتبه كيف بالشيخ وما زال لسانه رطباً بذكر الله وقلبه مفعم بحب الله وخشية الله، كيف بالشيخ ووقته زاخر بعبادة الله وتفسير كتاب الله وتعليم شريعة الله، كيف بالشيخ ولم يزل رنين هاتفه لا ينقطع محدثاً للعباد ومفتياً في قضاياهم وناصحاً وهادياً لضالهم.

وما أحسب أن هذه التقنية الحديثة حملت في أسلاكها حديثاً في الله مثلما حمله هاتف ابن باز.

❑ الناس يضمنون بأرقام هواتفهم الشخصية حتى على الأصدقاء، ولكن هواتف الشيخ ورفاقه لم تكن شخصية بل كانت جماهيرية! وهكذا تكون الأثرة ونكران الذات.

❑ وكان الشيخ جريئاً.. كان جريئاً في الحق.. ما أن تحل بالأمة نائبة أو يدلهم بها خطب، إلا وتسائل الجميع.. ماذا يقول الشيخ؟

❑ كان الشيخ لسان الأمة الصادح بالحق وفؤادها النابض بالتقوى.. كان رأيها الصادق الأمين.. يصدر الفتوى جريئة قوية صادحة بالحق، فتطفئ لهيب الباحثين عن الحقيقة، وتوغر صدور الحاقدين.. ولم يكن الشيخ يأبه

كان جريئاً في الحق.. لم تكن تأخذه فيه لومة لائم ولا عتاب جاهل ولا تقول زيم.. كانت فتاواه وما زالت تحدث خلافاً ويدور حولها جدل واسع.. كانت الدنيا تقوم ولا تقعد.. وهو ثابت كالجبل.. هادئ كالبحر.. شامخ كالطود.. لا تهزه ردود الأفعال ولا تثنيه عن كلمة الحق الأهوال.

❑ وكان الشيخ موحداً.. بل كان إمام الموحدين في عصره.. حمل راية التوحيد بأمانة وصدق وقوة في عالم إسلامي يضطرم بنار الفتنة والخلافات ويشتعل بفتيل الفرقة والشقاق وتعشش في أرجائه البدع والخرافات..

❑ وكان الشيخ ممن أراد الله بهم خيراً ففقهه في الدين، وكان ممن أحبه الله فحبب فيه خلقه.. كانت حياته كلها صدقة جارية من البر والإحسان للمحتاجين، والنصح والهداية للمضالين، والعلم والفقه للباحثين عن الحقيقة.

فدارت المطابع كأن لم تدر من قبل بمطبوعات ابن باز، ورن الهاتف كأن لم يرن من قبل بحديث ابن باز، وكتب الصحفيون والإعلاميون كأن لم يكتبوا من قبل آراء ابن باز وصدق المذيع والتلفاز كأن لم يصدحا من قبل بأحاديث ابن باز فهل من صدقة جارية أكثر من هذا؟^(١)

❑ وقال الدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني:

قد كنت أسمع بسماحة العلامة الحبر إمام أهل السنة والجماعة في الربع الأخير من القرن الرابع عشر والربع الأول من القرن الخامس عشر من الهجرة النبوية عبدالعزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله تعالى - فكان في نفسي

(١) «إمام العصر» (ص ٣٥٠ - ٣٥٣) باختصار.

عظيماً قبل أن أراه، وعندما قدّر الله عز وجل لي أن أنتقل إلى مدينة الرياض في عام ١٣٩٩هـ قابلته فرأيت أعظم مما قيل فيه، فقد وجدته إماماً في الحديث، إماماً في معرفة الرجال ومصطلح الحديث، إماماً في الفقه، إماماً في العقيدة، إماماً في القرآن الكريم وتفسيره، إماماً في اللغة، إماماً في الأنساب، إماماً في الإفتاء والدعوة إلى الله على بصيرة، إماماً في الكرم والجود، والزهد في الدنيا، والتواضع، وحسن الخلق، والعطف على الفقراء والمساكين، والورع، والتقوى، والصبر، والثبوت وعدم العجلة في الأمور، ووجدته إماماً في الحكمة، فهو يضع الأمور مواضعها، وهذا في الحقيقة من توفيق الله له وإعانتة وتسديده، فما أكرمه سبحانه وما أطفه بالعلماء المخلصين!

❑ وقد استفدت من هذا العلامة كثيراً ولله الحمد، فقد كان يأمر بالدعوة إلى الله على بصيرة بالأسلوب الحسن، وتعلمنا منه النصيح لأئمة المسلمين، ويأمرنا بالدعاء لهم بالتوفيق والإعانة والتسديد، ويطبق ذلك على نفسه فيدعو لولاة الأمر في كل مناسبة، والله لا أحصي دعاءه لهم بالتوفيق وإصلاح البطانة والإعانة والتسديد لكل خير، سواء كان ذلك في دروسه أو محاضراته أو توجيهاته، فوالله لا أحصي عدد المرات التي بكى فيها من خشية الله تعالى، ومن ذلك أنه أذيع عنه في إذاعة لندن في عام ١٤٠٠هـ تقريباً أنه يكفر أهل المعاصي ببلغه هذا الخبر وهو يلقي محاضرة في الجامع الكبير «جامع الإمام تركي بن عبد الله - رحمه الله - فاستنكر هذا الخبر ورده وتبرأ من هذا القول وبكى، وتلا قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

❑ وقال: «لازم التدريس في حلقات منتظمة في الجامع الكبير: يوم الأحد، والإثنين، والأربعاء، والخميس بعد صلاة الفجر، وفي جامع سارة

في البديعة ليلة الإثنين، وليلة الخميس، وفي مسجده بعد عصر كل يوم، وبين الأذان والإقامة لصلاة العشاء، ويعلق على المحاضرات والندوات التي تقام في الجامع الكبير ليلة كل جمعة، ويجيب على الأسئلة، ويجيب دعوة من دعاه لإقامة المحاضرات العامة، واللقاءات المفتوحة، وحفلات الجمعيات لتحفيظ القرآن الكريم، والمشاركة في برنامج نور على الدرب باستمرار، وغيره من البرامج النافعة، ويدرس في الحلقات المذكورة الكتب الستة، ومسند أحمد، وموطأ مالك، وسنن الدارمي، وشرح السنة للبغوي، وتفسير ابن كثير، وفي المصطلح نخبه الفكر، وشرح ألفيه العراقي، وفي العقيدة الأصول الثلاثة، وكتاب التوحيد، والعقيدة الواسطية، والحموية، والطحاوية، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وفتح المجيد، وكتب ابن تيمية، ومنها: الفتاوى، والاستقامة، وزاد المعاد، وإغاثة اللهفان، ومفتاح دار السعادة، وكتب أئمة الدعوة النجدية، ومنها: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، وفي الأحكام: بلوغ المرام، ومتقى الأخبار، وعمدة الأحكام للمقدسي، وفي الفقه: الروض المربع، والفرائض، وفي التاريخ والسير: البداية والنهاية لابن كثير، وفي هذه الدروس يكون القاموس المحيط والتقريب مع الطلاب لمراجعة اللغة والرجال، بالإضافة إلى تفسير البغوي بعد صلاة الجمعة في منزله، والجلوس للإجابة على الأسئلة ونفع الناس بين المغرب والعشاء في منزله في الليالي التي ليس له فيها دروس، ويشرح رياض الصالحين بعد صلاة العصر من كل يوم في مسجده، إلى غير ذلك من الدروس، وكان أطول هذه الدروس درس يوم الخميس في الجامع الكبير، فقد يمتد الدرس إلى أربع ساعات، والشيخ ثابت على كرسيه، والله ما رأيته يوماً في الدرس ناعساً منذ تسعة عشر عاماً، حتى في الأيام التي مرض فيها قبل موته، بل متنبهاً مستمعاً جليداً.

□ وإذا غضب الشيخ على بعض طلابه فمن أعظم ما يقول: «سُبْح.. سُبْح» أو «سبحان الله»، أو يقول: «اللهم اهدنا فيمن هديت»، وهذا يدل على عظيم خلقه وعلو منزلته، ولا يترك هذه الدروس إلا إذا سافر أو مرض مرضاً لا يستطيع معه أن يصلي مع الجماعة، ولم يحصل له ذلك فيما أعلم إلا مرة أو مرتين ولله الحمد^(١).

* والسابقون السابقون:

برنامج الشيخ اليومي والسنوي بإيجاز:

□ هذا برنامج الشيخ في ثوب موجز، وأسلوب مقتضب، ليكون مثلاً يُحتذى، وأسلوباً يُقتدى، ونبراساً للمحبين، وآية للسائلين.

يستيقظ من نومه قبل الفجر بساعة على الأقل، ليأخذ حظه من الليل وهذه سنة ثابتة في حياته - رحمه الله - سفيراً وحضراً.

يصلي الفجر ثم يأتي بأوراد الصلاة وأوراد اليوم كاملة، وفي أكثر الأيام يكون عنده درس علمي ثابت وخصوصاً في الرياض والطائف؛ لأن إقامته بهما طويلة، وهذا الدرس الثابت يكون في بعض أيام الأسبوع ويتوافد له طلبة العلم من مسافات بعيدة، وقد يستمر أحياناً لمدة ثلاثة ساعات، والأيام التي ليس فيها الدرس قد يلقي فيها موعظة موجزة.

وبعد صلاة الفجر يعود الشيخ إلى منزله ويتناول حبات من التمر، وكان يحبه كثيراً - رحمه الله - ويشرب القهوة، ثم تُقرأ عليه المعاملات المتنوعة. وأيام الأسبوع موزعة على الموظفين والقراء على سماحته لكل منهم يوم معلوم، فتقرأ عليه المعاملات وتقرأ عليه في كثير من الأحيان بعض الكتب إما لمراجعة مسألة، أو لتحضير درس، أو لإجازة كتاب، أو للتأليف،

(١) «إمام العصر» (ص ٣٦٩ - ٣٧٢) باختصار.

أو غير ذلك .

وجلسة الشيخ في منزله بعد الفجر في اليوم الذي ليس فيه الدرس العلمي تستمر من الساعتين إلى الثلاث أحياناً .

وبعض العلماء وطلبة العلم الذين يريدونه في أوقات مناسبة ومساائل هامة يختارون هذا الوقت في الغالب .

وبعد هذا كله يذهب الشيخ لأخذ قسط من الراحة قد ينام فيه وقد لا ينام، ثم في الساعة التاسعة أو التاسعة والربع يتجه للذهاب إلى المكتب، ثم ينطلق ويمكث في المكتب إلى الساعة الثانية والنصف وقد تزيد، وفي يوم الأحد والثلاثاء في الغالب يكون اجتماع اللجنة الدائمة للإفتاء، وبعد الساعة الثانية والنصف ظهراً من كل يوم ينطلق الشيخ إلى منزله وتكون وجبة الغداء قد أعدت وهيئت في هذا الوقت ويكون البيت قد اكتظّ بطلبة العلم والضيوف والفقراء والمساكين الذين يسعدون بتناول الغداء معه .

ثم يشرب الشاي والقهوة والنعناع وينظر في الحاجات الهامة للناس إلى ما قبل صلاة العصر بربع ساعة على الأقل، فيقوم ويتوضأ للصلاة ثم يذهب إلى المسجد، وبعد الصلاة له درس ثابت ما أخلّ به طيلة حياته لا في حضرٍ ولا في سفر، ثم يجيب على عددٍ من الأسئلة .

أما بعد صلاة العصر إلى قبل صلاة المغرب فهو وقت راحته يخلد فيه للنوم، وقد لا ينام أحياناً، ثم يتوضأ ويذهب لصلاة المغرب، ثم يأتي بالأذكار كاملة بما في ذلك أذكار المساء، وبعد المغرب إن لم يكن لديه درس أو محاضرة فهي جلسته المعروفة للناس، ولم يخل بموعدها طيلة عمره لا في سفر ولا في حضر، ثم إذا أذن المؤذن لصلاة العشاء انطلق إلى المسجد للصلاة وله درس بين الأذان والإقامة، ثم يجيب على عددٍ من الأسئلة، وهذا أيضاً من الأشياء الثابتة في حياته في سفره وفي حضره لم

يخالفها أبداً.

«قصّدتنا بالسفر: إقامته خارج الرياض: مكة - الطائف...».

أما بعد العشاء فهو إما محاضرة أو اجتماع أو قراءة بعض الكتب أو المعاملات، أو يُقرأ عليه موجز الصحف، أو تلبية دعوة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يحضر الشيخ مجلساً أو مناسبة ثم لا يلقي كلمة أو موعظة، بل طيلة مكوثه فهو إما يفسر آية أو حديثاً أو يلقي موعظة أو يجيب على الأسئلة.

ومن برامجه بعد العشاء استقبال حالات الطلاق والمطلقين، وقد يستمر معهم ساعات طويلة.

ثم يتعشى مع ضيوفه وزوّاره ويتناول الشاي والنعناع والقهوة ثم يدعو بالبخور الطيب وتسمّر جلسته بعد العشاء إلى الساعة العاشرة والنصف، وأحياناً إلى الحادية عشرة، وأحياناً تطول، وجميع وقته في مكتبه أو في منزله أو في سيارته لا يفتر فيه لسانه عن ذكر الله تعالى، بل أثناء أكله وشربه كثيراً ما يردد: الحمد لله، الحمد لله.

لا باني أنساك أكثر ذكراك ولكن بذاك يجري لساني

□ وهكذا كان برنامجه اليومي - رحمه الله - ثم لا تسل عن كل يوم من أيامه - رحمه الله - كم يُبذل فيه من العلم، ويُسدى من النصيح، ويُنفّس من الكروب، ويفرّج من الهموم، ويُقضى من الديون، ويُمنع من الشرور، ويُلمّ من شتات الأسر، ويُطعم من جائع، ويكسى من عار، ويُغاث من ملهوف، ويُبذل من معروف.

ذاك هو برنامج الشيخ اليومي تقريباً، وهو - كما رأيت - برنامج خافل بالبذل والعمل والعلم والعطاء والعبادة والخير الكثير. وأعجب وأعظم ما يميز الشيخ هو وقته المنظم الذي لا يتغير ولا يتبدل، وبرنامج معروف ومضبوط

سواء اليومي أو الشهري أو السنوي.

* وبرنامج الشيخ السنوي هو :

الإقامة في مدينة الرياض، وهي تقريباً تبدأ من الشهر الرابع من السنة الهجرية، وفي الشهر السادس أو السابع يأتي إلى مكة لحضور مجالس الرابطة والمجمع الفقهي، ويمكث أسبوعين أو ثلاثة ثم يعود بعدها إلى الرياض، ثم يعود إلى مكة مرة أخرى في العشر الأواخر من رمضان، وقد يأتي من اليوم السادس عشر أو السابع عشر.

والشيخ - رحمه الله - خصوصاً في السنوات الأخيرة لم يكن يصلي التراويح بالمسجد الحرام نظراً لكثرة الزحام؛ ولأنه يرى أن مكة كلها حرم، وأن الحديث الوارد في مضاعفة الصلاة في المسجد الحرام إلى مائة ألف صلاة يشمل حرم مكة كلها، وأدلته - رحمه الله - قوية جداً ومقنعة، ولذلك فهو يريد أن يَسُنَّ ذلك للناس لكي يبين لهم أن الأمر فيه سعة، فلا ضرورة للتزاحم والتحاشد الذي يذهب بخشوع الصلاة.

وهو يصلي صلاة التراويح على السُّنة إما ثمان ركعات ويوتر بثلاث وهذا في الغالب، وإما عشر ركعات ويوتر بثلاث وهو يفتي بأن هذه هي السنة، وأن الأخذ بها أفضل وأكمل، ومن سألته عن الصلاة إحدى وعشرين ركعة أو أكثر أو أقل فإنه لا يرى بذلك بأساً.

وهو يلتزم الهيئة - المذكورة آنفاً - في صلاته حتى في العشر الأواخر في صلاة التهجد، فهو يقسم الصلاة قسمين فيصلّي تسليميتين أو ثلاث بعد العشاء، ثم يكمل الصلاة والوتر بعد منتصف الليل. وكان يأمرنا في الدعاء أن نقتصر على الدعاء المأثور فقط.

وأذكر أنني أول ما عيّنت في مسجد سماحته بمكة المكرمة حينما جاءنا الشيخ في العشر الأواخر، وصليت به التراويح كنت قد استذكرت أدعية

كثيرة للوتر، فحينما وصلت إلى دعاء القنوت تفتنت في الدعاء، وتأملت في اختيار الكلمات المؤثرة، والعبارات المسجوعة وشرقت وغربت فلم أترك مسافراً، ولا غائباً، ولا مديناً، ولا، ولا، ولا.. إلخ إلا رددته، إلا أغنيته، إلا.. إلخ، ولم أترك بلداً من بلاد المسلمين إلا وأعطيته نصيبه من الدعاء، ثم طوّفت على الشعوب بجميع طبقاتها ومستوياتها، ثم مررت بالأحياء ثم الأموات، مع ذكر صفة الموت، وعذاب القبر، والجنة والنار! ثم توقفت طويلاً مع بعض الأدعية المؤثرة فأعدت وزدتُ وبكيت، فلما قضيت الصلاة بعد رحلة طويلة من الدعاء الذي خارت له القوائم، وسقطت منه العمام، ونثرت به الدموع السواجم قلت: هذا الذي سيفرح به الشيخ ويدعو لي من أجله، فإذا به يدعوني ثم يهمس في أذني كعادته في النصيحة - رحمه الله - فيقول: لقد أطلت الدعاء كثيراً، اقتصر على المأثور.

وفي اليوم الثاني اكتفيت بنصف ما ذكر مما مضى من الأدعية فدعاني أيضاً وقال لي: اقتصر على المأثور ولا تطل، فعرفت قصده - رحمه الله - فالتزمت به، فرأيت لهذا الالتزام بالمأثور من الدعاء من انشراح الصدر والأثر في النفس والارتياح من الناس ما لم أجد له مثيلاً في ذلك الدعاء الطويل.

● وحينما عدت لأتأمل قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها حينما سألته إذا هي أدركت ليلة القدر بما تدعو الله فيها فقال لها: «قولي: اللهم إني أعفو» تحب العفو فاعف عني» عرفت عظمة النبي ﷺ وبلاغته، وعرفت فقه الشيخ - رحمه الله - وحسن اتباعه، فإن هذا الدعاء قد حوى الخير كله، فالإنسان يقف ذلك لوقت الطويل ويدعو بكل تلك الأدعية ومحصلتها جميعاً أنه يريد الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهو يشي على الله تعالى ثم يدعوه، وذلك كله قد أوجزه هذا الحديث المبارك، فهو حوى الشاء على الله بأحب الصفات إليه - صفة العفو - وحوى أجمل دعوة وأفضل مأمول وأكمل مطلوب، وهو

نيل عفو الله تعالى، ومن عفا الله عنه فقد فاز.

□ ونعود بعد هذا الاستطراد إلى برنامج الشيخ السنوي:

في ليلة التاسع والعشرين ينطلق عائداً إلى الرياض، ثم يمكث هناك إلى آخر شهر ذي القعدة، فيتجه إلى مكة لأداء فريضة الحج وللقيام بواجب النصح والتوجيه والإفتاء لحجاج بيت الله الحرام، وفي هذه الأيام يأتي إليه المسلمون من أنحاء الدنيا ومن عادته أن يقيم مخيماً كبيراً بمبنى ويستضيف فيه مئات المسلمين خصوصاً من طلبة العلم والفقراء والمساكين.

ويمكث في مكة إلى آخر شهر ذي الحجة، ثم ينطلق إلى الطائف وقيم فيه إلى شهر ربيع الثاني، وبعد ذلك يعود إلى الرياض، ويكون سفره ذهاباً وإياباً في طائرة خاصة من الدولة - وفقها الله - عن طريق مطار الطائف دائماً. وهكذا يستمر برنامجه رحمه الله رحمة واسعة.

□ ومن أهم ما يذكر في برامجه اليومية والشهرية والسنوية زيارته للأقارب واتصاله المستمر بهم دائماً وأبداً وهو يحفظ أرقام هواتفهم جميعاً ولقد رأيت منه في ملاطفتهم والسؤال عنهم والأنس بالحديث إليهم صغيراً وكبيراً رجالاً ونساءً ما يثير العجب، ويورث الحب والإجلال، عليه رحمة المتعال.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

□ يقول ابنه فضيلة الشيخ أحمد: برنامج سماحة الوالد اليومي متقارب طوال أيام الأسبوع.. يصحو قبل الفجر بساعة ليصلي ويقرأ من القرآن ما شاء الله.. ثم مع الأذان يحاول إيقاظ جميع أهل البيت لصلاة الفجر، ثم يتوجه إلى الجامع الكبير ليقوم بعد صلاة الفجر بإلقاء بعض الدروس لمدة تصل أحياناً إلى ثلاث ساعات، ثم يرجع إلى البيت، وبعد الإفطار يتوجه إلى مقر عمله ولا يمكن أن يخرج من عمله قبل الساعة الثانية والنصف

ظهراً، فيرجع إلى البيت ليجد الجمع الغفير من الضيوف الفقراء بانتظاره، فيتناول طعام الغداء معهم، ثم يجلس لشرب القهوة ومحادثة الضيوف والإجابة على الاستفسارات والفتاوى عن طريق الهاتف إلى أذان العصر، وبعد صلاة العصر والدرس اليومي يتوجه إلى منزله لأخذ قسط من الراحة إلى ما قبل أذان المغرب بنصف ساعة، ثم يجلس للناس بعد صلاة المغرب يستمع إلى سائلهم ويقرأ ما يعرض عليه من الأوراق ويجيب على الاستفسارات عن طريق الهاتف إلى أذان العشاء، وبعد الأذان درس بين الأذان والإقامة، وبعد صلاة العشاء يرجع إلى البيت للاجتماعات الخاصة والمواعيد الشخصية ومطالعة الكتب في المكتبة، ثم يتناول طعام العشاء مع الحضور ليتوجه إلى مكان راحته، بعد ذلك عند الساعة الحادية عشرة أو أكثر يستمع إلى الأخبار قبل النوم، وهكذا برنامجه يحفظه الله، وقد تتخلل أيام الأسبوع محاضرات دينية في مساجد مختلفة أو ولاء ومناسبات اجتماعية يحضرها أو عملية في مقر عمله مساء، يقوم بكل ما سبق بأريحية وبدون ملل ولا كلل.

* قلعة العلم :

خفقان قلب الشعر، أم خفقاني	أم أنه لهب من الأحزان
ماذا يقول محدثي؟ أحقيقة	ما قال، أم ضرب من الهذيان؟
ما لي أرى ألفاظه كحجارة	ترمي بها الأفواه للآذان؟
«الشيخ مات» عبارة ما خلتها	إلا كصاعقة على الوجدان
أو أنها موج عنيف جاءني	يقتاد نحوي ثورة البركان
يا ليتني استوقفت رنة هاتفني	قبل استماع نداء من ناداني
أو أنني أغلقت كل خطوطه	متخلصاً من صوته الرنان

أُخْرَى تُعِيدُ بِهَا اتِّزَانُ جَنَانِي
 أَنْقَذْتَنِي مِنْ هَذِهِ الْأَشْجَانِ
 عَجَبًا لِأَمْرِكَ يَا فَتَى الْفَتِيَانِ
 وَنَهَايَةِ كَتَبْتَ عَلَى الْإِنْسَانِ؟
 وَجَمِيعٍ مِنْ خَلْقِ الْمُهَيْمِنِ فَاانْ؟
 بَابُ الرَّجَاءِ هَرَبْتُ مِنْ أَحْزَانِي
 بِاللَّهِ، مَجْبُولٌ عَلَى الْإِذْعَانِ
 مَلَأْتُ بِرَأْيِي صَائِبَ وَبَيَانِ
 ثِقَةٍ بِعَوْنِ الْخَالِقِ الْمُنَانِ
 وَارْتَدَّ مَوْجُ الْبَغْيِ وَالْبُهْتَانِ
 وَجَدْتُ بِنَاءَ ثَابِتِ الْأَرْكَانِ
 وَاسْتَرَشِدَ الْقَاصِي بِهَا وَالِدَانِي
 خَضِرَاءُ مِنْ ذِكْرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
 فِي عَصْرِنَا الْمُتَذَبِّذِ الْخَيْرَانِ
 صَارَتْ بِلَا سَعَرٍ وَلَا أَوْزَانِ؟
 سَتَظَلُّ عَاجِزَةٌ عَنِ التَّبْيَانِ
 وَعَنِ الشُّمُوحِ يُحَاطُ بِالْإِيْمَانِ؟
 عَنِ فَقْهِ هَذَا الْعَالَمِ الرَّبَّانِي؟
 حُزْنُ الْقُلُوبِ، وَأُدْمَعُ الْأَجْفَانِ
 تَلْقَى دَمُوعَ الطَّائِفِ الْوَلَهَانِ
 عَنِ قِصَّةِ مَشْهُورَةِ الْعُنْوَانِ
 كُلُّ الْقُلُوبِ مَشَاعِرَ اطْمَعْنَانِ

«الشيخ مات» أما لديك عبارة
 قل لي - بربك - أي شيء، ربما
 قل لي - بربك - أي شيء، قال لي:
 أنسيت أن الموت حق واقع
 أنسيت أن الله يبقى وحده
 أنسيت؛ لا والله لكنني إلى
 «الشيخ مات» صدقت، إني مؤمن
 الشيخ، لا بل قلعة العلم التي
 هو قلعة العلم التي بُنيت على
 وأمامها هزمت دعاوى ملحد
 وتطايرت شبه العقول لأنها
 أنست بها نجد، ومهبط وحيناً
 هو قلعة ظلت تُحَاطُ بِرُوضَةِ
 صَانِ الْإِلَهِ بِهَا عَقِيدَةُ أُمَّةٍ
 ماذا تقول قصائد الشعر التي
 ماذا تقول عن «ابن باز» إنها
 ماذا تقول عن التواضع شامخاً
 ماذا تقول عن السماحة والنهي
 مات «ابن باز» للقصائد أن ترى
 في عين «طيبة» أدمع فياضة
 والخرج تسأل والرياض ومكة
 عن قصة الرجل الذي منحت له

أعماقنا بمودة وحنان
ومعلماً للناس دون توان
وسرت متابعة إلى الظمآن
وتعلقت بك يا عظيم الشأن
وأجل مغفرة من الرحمن^(١)

ولنبض قلبي أن يذوب حيننا
أن تفتح البواب الذي يشجينا
منا الوفاء لأنه يحدونا
ورث الهدى والعلم والتمكينا
وأعز مال مورث يغنيا
فيما تحدثنا بما ينجينا
أحسست أن الشك صار يقينا
وسمعت أصوات الشداة طنينا
من كل ناحية، وصرت رهينا
وبأي سهم في الفؤاد رمينا؟
وبأي أصناف البلاء بلينا؟
وأثرت فيها لوعة وأنينا
وهاجة بلهيهن صُلينا
هذي الحروف وما تحرك فينا؟

ما زلت أذكر صورته يسري إلى
يُفتي وينصح مرشداً وموجهاً
نور على الدرب ارتوى من فقهه
يا رب قد أصغت إليك قلوبنا
«الشيخ مات»، عليه أندى رحمة
* مات ابن باز:

للشعر بعدك أن يظل حزينا
وكل قافية خبأت حروفها
ولصوت حادي الشعر بعدك أن يرى
يا وارثاً للأنبياء وإنما
ورث العقيدة وهي أعظم ثروة
يا راحلاً عنا كأنك لم تكن
لما نعاك إليّ صوت محدثي
ورأيت أثبت ما أمامي دائراً
وشعرت أن الحزن صار يحيط بي
هل يدرك الناعي حقيقة من نعى
وبأي فاجعة أصيبت أمتي
يا أيها الناعي جرحت قلوبنا
مات ابن باز، يا لها من أحرف
مات ابن باز، هل علمت بما حوت

(١) لعبد الرحمن صالح العشماوي (ص ٥٥٨ - ٥٥٩).

يا أيها الناعي رويدك، إن من
 أوْلَم يكن نوراً يضيء عقولنا
 أترك لم تعلم بأن وفاته
 أنسيت أن وفاة عالم أمة
 يا خادم الحرمين شكراً صادقاً
 أسرجت خيلاً للوفاء كريمة
 شيعت عالمنا الجليل وإنما
 شيعت في يوم الفضيلة والتقى
 لما تقدمت الجموع مودعاً
 ورسمت للأجيال أجمل صورة
 كرمتم فيها العلم، علم شريعة
 فلتشهد الدنيا حقيقة ما جرى
 لكأنني بوفاة شيخ شيوخنا
 خرجت جموع المسلمين فلا تسل
 في مسجد الله الحرام، وهل رأيت
 لما تلاقى المسلمون هناك في
 وتراحمت أفواجهم، وكانهم
 شهدت بقاع الأرض صورة أمة
 هو ديننا نبع الفضائل ترتوي
 وبه يغرد طائر الأمن الذي
 وبه نخوض محيط كل رزية
 يا شيخنا ودعتنا، وقلوبنا

تنعى، أب بحنانه يسقينا
 وإلى الهداية والتقى يدعوننا؟
 رزء وأن وداعه يشقينا؟
 حدث بأسهم بؤسه يرمينا؟
 فلقد رأينا كل ما يرضينا
 ما زال لحن صهيلها يغرينا
 شيعت عقلاً راجحاً ورزينا
 شيخاً بنى للمكرمات حصونا
 رفع التلاحم والوفاء جبيناً
 ستظل من أمجادنا تدنينا
 تمحو الضلال وترشد الغاونا
 إن الحقائق تهزم التخميناً
 صارت مثلاً للوفاء مبينا
 عن مشهد جعل الشمال يمينا
 عين مكاناً مثله مأمونا
 أزكى وأطهر بقعة باكيها
 يردون حوضاً منه يستسقونا
 لا ترتضي غير الشريعة ديناً
 منه القلوب وماؤه يشفينا
 من كل بغى مكابر يحميناً
 فهو السفين لمن يريد سفينا
 تُهدي إليك من الوفاء فنونا

ودعتها بالقلب منك سنيها
 جعلت محب دلالها مقتونا
 ورجالها وبناتها وبنينا
 منحوك حباً في القلوب ثمينا
 فقدوا بفقدك مرشداً ومعينا
 نهراً من الدمع الغزير سخينا
 بك يا عظيم الشأن يا هادينا
 بقضاء عدلك في العباد رضينا
 فيما تعوضنا به راجينا
 ورعى المهيمن خطها الميمونا^(١)

ودعت دنيانا بجسمك بعدما
 وزهدت فيها وهي ذات تبرج
 عزيت فيك ولاة أمر بلادنا
 عزيت فيك العلم والعلماء قد
 عزيت فيك المسلمين جميعهم
 يا رب لطفك صار فيض جراحنا
 إنا برغم الحزن نحزم أمرنا
 إنا إليك لراجعون، وإننا
 إن مات عالمنا فإننا لم نزل
 سلمت بلاد الخير من آلامها

* مشهد الرحيل :

□ يقول الدكتور ناصر الزهراني :

أيها الشيخ الذي
 ليت روحي قُدِّمتُ
 بُحْتُ بالأشواق لكُ
 للمنايا بذلك

□ توفي الشيخ - رحمه الله - قبل فجر يوم الخميس في اليوم السابع والعشرين من شهر محرم لعام عشرين وأربعمئة وألف من الهجرة، في مدينة الطائف، وحمل جثمانه الطاهر إلى منزله بمكة المكرمة صبيحة يوم الجمعة، وهناك تم غسله وتكفينه - قدس الله روحه، ثم انطلق به مصحوباً بوفود هائلة من أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، بقلوب محترقة، وأدمع باكية، وأنفس والهة.

(١) لعبد الرحمن العشماوي (ص ٥٦٠ - ٥٦٢).

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدَّيْمِ
عليك السلام فكم من وفاءٍ نفارقه منك كم من كرم

□ ذهبوا به إلى المسجد الحرام الذي عاش ليلة من لياليه المشهودة حيث غصّت أبوابه، وملئت رحابه منذ اليوم الأول، حيث توافدت الناس من أنحاء الدنيا، أقبلت القلوب قبل الأقدام، وتسابقت الأرواح قبل الأشباح، وسالت الدموع قبل الجموع.

غصّت الطرق البرية بالقادمين إلى مكة، وارتبكت المطارات لذاك الزحام الرهيب، والإقبال المهيّب من الناس، كلهم يريدون الحجز إلى جدة أو الطائف، وكثفت الرحلات، ولكنها لم تستطع أن تستوعب تلك الأعداد الهائلة التي جاءت لتلقي نظرة وداع على الإمام الراحل.

أخذتُ مكاني في المسجد الحرام بصعوبة فائقة، فأديت تحية المسجد ثم جلست فإذا بالنحيب من عن يميني وشمالي، وأمامي وخلفي، فأطلق بصري للصفوف البعيدة في شتى الاتجاهات فلا أرى إلا متقنعا بأكيا، ووالها متجبّا، ومطرقا حزينا، وأناسا قد خفضوا رؤوسهم ولهم خنين بالبكاء، فكنت أعطي النفس رغبتها، وأطلقها على سجيّتها، فأدعها تبكي ساعة، ثم أخنق عبرتي، وأمسح دمعتي، وأنظر في أحوال الناس، وما هم فيه من كرب عظيم، ثم أعود أنثر دموعي مدرارا، وحقّ لي ذلك، فما ظنكم بإنسان يشعر بأن قلبه النابض سقط من بين جنبيه، أو يجد شعلة من حريق تشب في أحشائه وتاكل فؤاده، أو يحس أن نور عينه انطفأ، وسراج لياليه أضمّد، وفرات مائه قد أصبح غورا، لقد كنت بل ومكثت لعدة أيام بعد وفاة الشيخ، وأنا لا يزال عندي أمل أنه سيعود، وأن الخبر قد يكون مغلوطا ولكن هيهات لقد عشت الموقف الذي عاشه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع النبي صلّى الله عليه وآله حينما جاءه نبأ وفاته، فسل سيفه وقام في الناس قائلا، من قال إن محمدا قد مات

ضربته بسيفي هذا.

ولقد عرف كثير من أحبتي وأصدقائي محبتي العميقة للشيخ، وتعلقني الشديد به فبادروا بالاتصال بي وزيارتي ومواساتي جزاهم الله خير الجزاء، وكان كل منهم يقول: حينما سمعت الخبر أول ما خطر على بالي أنت.

وأعود إلى سرِّ الحدث.. المهم أنني مضيت على تلك الحالة المذعورة حتى صعد الخطيب المنبر، فلما بدأ الخطيب^(١) في خطبته، وتحدث عن هول الفاجعة قائلاً: «وقد أصيبت أمة الإسلام اليوم بوفاة عالم الأمة وإمام أهل السنة والجماعة في هذا العصر؛ علامة زمانه وفقه أوانه الداعية إلى الله تعالى على علم وبصيرة، المجاهد في سبيل الحق والهدى سماحة العلامة الجليل الشيخ عبدالعزيز بن باز» ضج الناس بالبكاء، وجادت العيون بالدموع، واشتد أزيز الصدور، فلما فرغ من الصلاة، ونادى المنادي: الصلاة على سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن باز يرحمكم الله» تدافع الناس باتجاه الجنازة، وعظم الزحام وكثر الضجيج، واشتد الموقف، وادلهم الأمر، وخشينا على الجنازة من ذلك التدافع المهول، والسباق ولم يسكن ضجيجهم، ماج بعضهم في بعض، وتخطى بعضهم بعضاً، كلُّ يريد أن يحمل الجنازة وكل يريد أن يقترب للصلاة عليها، وكل يريد أن يكون عن كُتب ليتأمل الموقف وليسارع إلى حمل الجنازة بعد الصلاة، ولولا أن الإمام سارع بالتكبير لطالت المدة، والناس على هذه الحال.

□ ويعجز القلم عن تصوير حقيقة الموقف بعد انتهاء الصلاة، لك أن تتصور كيف يكون الأمر لو ازدحم عشرة آلاف رجل أو عشرين على شخص أمام موقع معين، أو أمام دائرة حكومية، كيف يكون الموقف، فما هو الحال يا ترى فيمن ازدحم عليه أكثر من مليوني مسلم على الأقل، أقبل هذا الموج

(١) هو الشيخ محمد السبيل إمام المسجد الحرام وخطيبه.

المضطرب من الناس بجنّازة الشيخ على أكتافهم بل على رؤوس أصابعهم، سبقتُ الجموع إلى السيارة التي ستحمل الشيخ فصعدت عليها أنظر في هذا الموقف الرهيب، (وأستغفر الله العظيم مما فعلت)، والله لقد ظلمت أصبح وأبكي بأعلى صوتي، والذي نفسي بيده ما ارتسم أمام ذهني وأنا أتأمل ذلك الموقف الأجل إلا وقوف الناس لرب العالمين، أقبلت الأمواج المضطربة من الناس، الحر شديد، والزحام شديد، والموقف مهيب، والحشد رهيب، والعرق يبلغ منهم كل مبلغ البكاء يملأ المكان والزمان، والنحيب يهد الصدور هدأً، لقد اندفعت بالبكاء المرير من غير شعور، من غير وعي، لقد اضطربت في نفسي مشاعر عدّة، مشاعر الحزن لفقد الشيخ مشاعر الهيبة لهول الموقف، مشاعر الخوف الشديد على جنازة الشيخ التي أصبحت كأنها قطعة الخشب الصغيرة على سطح الأمواج الهادرة، وأنا أبكي وأهتف وأنادي: يا الله لطفك، يا الله لطفك، يا الله لطفك، كان مئات العسكر قد انتشروا وكونوا ممرًا للجنازة يبدأ من باب الحرم إلى باب السيارة، ووقفوا صفًا واحدًا قويًا على الناحيتين لكيلا يخترقهم أحد من الجموع الهادرة ورائهم، وقد بذلوا جهدًا عظيمًا في ذلك، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة اخترقهم الناس، وهاجوا وماجوا، وتسارعوا نحو الجثمان الطاهر، كلٌّ يطمع في المشاركة في حمل الجنازة، أو على الأقل يظفر بلمسها، أو يكحل عينيه برؤيتها فقط، وما كادت يدي تلامس أول النعش - لأجذبه إلى داخل السيارة - إلا وقلبي يكاد يسقط من بين جنبي، وبجهاد شديد، وتعب شاق من العسكر والمتطوعين استطعنا إغلاق باب السيارة، فصعد الناس على مقدمة السيارة، وعلى السطح، وعلى مؤخرة السيارة، فإذا بهم كسرب النحل المتجمّع في جذع سدرٍ على عسوبه، انطلقت السيارة تخترق الجموع بصعوبة مريّة، والناس عن يمنة ويسرة، وأمامها وخلفها، يجرون لاهثين، الأنفاس خائفة، والقلوب واجفة، والدموع واكفة، يا الله، يا الله، يا الله، سقطت أرديتهم،

وتطائرت عمائمهم، وتقطعت أحذيتهم، يمشون على حرارة الأسفلت المحرقة، وكأنما يمشون على سجاد وثير، بدأ الطريق يتسع قليلاً قليلاً، وبدأ الزحام يخف حين البعد عن الحرم بكيلو متر تقريباً، ثم انطلقت السيارة في طريقها إلى مقبرة العدل بمكة المكرمة، وهي تبعد عن الحرم أربعة أو خمسة كيلو مترات تقريباً.

هذا إمام الجيل في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال
 □ ولم يمنع بعد المسافة كثيراً من الناس من المشي من الحرم إلى المقبرة سيراً على الأقدام، لقد سالت الأودية بالناس، واكتظت الطرق بالمسلمين المولين وجوههم شطر المقبرة في مشهد لم أر له مثيلاً إلا زحام الناس وتوافدهم إلى المشاعر في أيام الحج.

□ انطلقنا بالجسد الطاهر تجاه المقبرة، وأنا جالس بجواره، ويدي على قدميه انحس بردها، وأتلمس طهرها، والبكاء قد هدّ جسمي، وبُحَّ صوتي، وكادت حبال حنجرتي أن تتمزق، خارت قواي، طاش عقلي، ذهلت نفسي، تبدد فؤادي. وكنت إذا التقطت أنفاسي قليلاً أرفع أكف الضراعة إلى الله وأدعو قائلاً: اللهم إنك تعلم أنني أحبه فيك فاجمعني بهذا الحب معه في جنات النعيم، وعلمني بهذا الحب شيئاً مما علمته. وكان معي في السيارة الشيخ أحمد بن عبدالعزيز ابن سماحة الشيخ - رحمه الله - وهو منهمك في دموع، غارق في بكائه ومعني مرافق الشيخ، وأمين مكتبته الأخ صلاح عثمان السوداني الذي أشهد أنه كاد يلفظ أنفاسه من شدة بكائه، وقد أغمى عليه وخرّ صريعاً في الطائف حينما سمع خبر موت الشيخ، ودخل إلى غرفة العناية المركزة بمستشفى الهدى.

□ أما الذي كان يقود السيارة التي تحمل جثمان الحبيب، فهو الأخ محمد السيلاني، هذا الرجل الذي تفانى في خدمة الشيخ، والسعي لنيل

رضاء، فهو ممن غمَّهم الشيخ بإحسانه، وبالرغم من أنه ليس موظفًا أو مرافقًا أو يتقاضى راتبًا، إلا أن جلَّ وقته مع الشيخ وفي خدمته وفي مساعدة العاملين مع سماحته ليلاً ونهارًا حينما يكونون في مكة المكرمة بالذات أو في الطائف، ويكاد ييسط راحته للشيخ ليمشي عليها.

❑ وصلنا إلى المقبرة وأنا في كرب عظيم، وخوف أليم من الموقف أمامنا خفت أن يتكرر الموقف الذي حدث عند الحرم، أتينا إلى المقبرة ذات المساحة الكبيرة، وإذا بالناس عليها مثل الغمام، أحاطوا بأسوارها، ومنهم من صعد إلى الجبال المطلَّة عليها في منظر مهيب، وموقف مرعب، وقد تذكَّرت قول الإمام أحمد - رحمه الله - لأهل البدع: «بيننا وبينكم الجنائز»، ولكن حُسن تصرف المسؤولين منع الله به ما كان يمكن أن يحدث من هرج ومرج، وتدافع وتطاحن، وتزاحم وتسابق على المقبرة، فقد صدرت الأوامر السريعة بمنع أي أحد كائنًا من كان بدخول المقبرة، وكان هذا عين الصواب والتوفيق.

❑ وصلنا إلى المقبرة وأول من فتح باب السيارة الأمير ماجد بن عبدالعزيز - أعظم الله أجره - أمير منطقة مكة المكرمة، ومعه أمير مكة بالنيابة الأمير سعود بن عبدالمحسن - أحسن الله جزاءه - وكان من أول الناس حضورًا وأكثرهم تأثرًا الأمير متعب بن عبدالعزيز - أعظم الله مثوبته - حملت جنازة الشيخ على كتفي ولم أدعها إلا عند القبر، وكنت ممن دلَّاه إلى القبر. حملت جثمانه الزاكي على كتفي وكنت أطمع لو أن طال مشواري نثرتُ سيل دموعي فوق تربته ومُضرمَ الحزن يكويني بإسعار

❑ وودعته الوداع الأخير، وبردت شيئًا من لواهب القلب بملامسة جسده الطاهر من وراء الكفن.

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفاً
وأخرى على الرضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخر العهد منكمو
ولا كان ذا التوديع آخر زادي

❑ ولم أكن أتذكر في هذا الموقف إلا وفاة النبي ﷺ وموقف الصحابة وذهولهم وبكاءهم يوم وفاته، وتذكرت قول فاطمة بنت محمد ﷺ وهي تقول: «كيف طابت نفوسكم وأنتم تحثون التراب على رسول الله ﷺ». أودع الشيخ - رحمه الله - في قبره جعله الله روضة من رياض الجنة - وكان الناس أمراء وعلماء ملتفين على القبر، وكان على رؤوسهم الطير.

أيا قبر شيخي كيف أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر شيخي كيف وارىت شخصه ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
فلما مضى شيخي مضى الجود والندى وأصبح عرنين المكارم أجدا

❑ وقف كثير منهم بضع دقائق يدعون الله تعالى له، ويسألون له التثبيت، وانطلقت الأمة المسلمة عائدة من طريقها بعد أن دفنت قلبها النابض وضميرها المتوقد وعنوانها الناصع، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

❑ والذي نفسي بيده ما مرّ عليّ موقف أشد وقعاً، وأكثر ألماً، من ذلك اليوم الذي فقدنا فيه سماحته.

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
❑ عدنا من المقبرة ميممين إلى منزل الشيخ، وكأننا دفنا معه قلوبنا وأرواحنا أما الأمير ماجد بن عبدالعزيز - حفظه الله - فقد اصطحب أبناء الشيخ إلى القصر الملكي، بناءً على أمر خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - الذي أمر أن يكون غداؤهم عنده، فاستقبلهم وواساهم وشدّ من أزهرهم ودعا لوالدهم.

ألست ترى موت العلي والحامد وكيف دفنا المجد في قبر واحد
وللدهر أيام يُسْنَعن عوامداً ويحسنّ إن أحسنّ غير عوامد
❑ انطلقنا إلى منزل الشيخ - رحمه الله - بمكة لاستقبال المعزين،

ويا الله... يا له من موقف، ويا الله... يا له من يوم عصيب، ومشهد مهيب، احتشدت الوفود، واكتظ الزحام، والأمة في مهرجان مهول، عزاء وبكاء، وجيبٌ ونحيب، المجالس غصّت بالناس، والفناء الواسع أترع بالملاء، وكأنك في فناء الكعبة المشرفة في ليلة السابع والعشرين من رمضان، أو في يوم الحج الأكبر، والبوابات كادت تقتلع من أصولها لشكرة المراحمين عليها، والأرض كادت أن تميد بمن فوقها، لجور الحمل عليها، وقيل يا أرض الحب ابلعي ماءك، ويا سماء الدموع لا تقلعي ويا ماء الحزن لا تغض، وقيل بعداً للقوم الكافرين.

❏ ولأول مرة أرى مثل ذلك المشهد الذي اجتمعت فيه كل الطبقات، وكل الأجناس، وكل اللغات، في مكان واحد، في موقف واحد، في منزل واحد، في هم واحد، في مصاب واحد، وكأننا في يوم عرفة، أقبلت جموع الأمراء على مختلف المستويات، وأقبل الوزراء والعلماء، وطلبة العلم، وشيوخ القبائل والوجهاء، والفقراء والمساكين، والأبيض والأسود والعربي والأعجمي، والكبير والصغير، قُطعت نياط القلوب، ومزّقت أوتار الحناجر، وأضرمت نيران الصدور، وجرت أنهار الدموع، لقد رأيت بعض الأمراء الذين ما كنا نراهم إلا على شاشة التلفاز أو على صفحات الجرائد، رأيتهم في هذا الموقف وهم يزاحمون الناس، يخترقون الصفوف، يتقاذفهم الزحام يميناً ويسرة، عيونهم باكية، وجنّاتهم محترقة، عقولهم ذاهلة، يعزون الناس، والناس يُعزونهم، ولا تسمع إلا ترانيم الدعوات الصادقة - رحمه الله، غفر الله له، عوض الله المسلمين خيراً.

على الرغم من أنف المكارم والعلی
ألم تر أن البأس أصبح بعده
غدت داره قفراً ومغناه بلقعا
أشّل وأن الجود أصبح أجدعا
إلى المجد والعلیاء كيف تخشعا
فمرا على قبر المسود وانظرا

فإن يك واره الترابُ فكبراً على الجود والمعروف والفضل أربعا
ولا تسأما نوحاً عليه مُكرراً ونوحاً لفقدان الحبيب مُرجعاً
فما كان شيخى هلكه هلك واحد ولكنه بنينان قوم تضعضعا
ولا تحسبا أني أواريه وحده ولكنني واريته والندى معاً

□ أما أنا فقد كنت كالإنسان الذي فقد كل شيء في حياته فجأة، فأصبح ذاهاً والهاً، خالي الفؤاد، شارد الذهن، محترق الأحشاء. كنت أحياناً أدع نفسي لأمواج الملاء أينما حملوني مضيت معهم، أتأمل كل زوايا المنزل، وأحدق في أطراف البيت، وأدقق في أنحاء الفناء، وكأنني في عالم آخر، كنت - وديمة الدموع تهمني - أتأمل في كل شيء، وأستعيد شريط الذكريات: هنا كان الشيخ يجلس، هنا كان يستريح، هنا كان ينام، هنا كان يستقبل ضيوفه، هنا كان يستقبل الفقراء، ويجود بالعطاء، ويحنو على الضعفاء، ويذل الشفاعة، ويصدق بالنصيحة. هنا كان يصلي، هنا كان يستقبل الناس، هذا كرسيه، ذاك هاتفه، تلك سيارته، ذاك سائقه، هذا مرافقه، هذا كاتبه، ذاك خادمه، كلما رأيت شيئاً، أو رمقت أحداً ممن كان له به صلة، فكأنما أشعلت نار الحزن من جديد، وفُجرت ينابيع الدموع للتو.

□ كنت أحياناً أصيخ بسمعي، وأصغي بقلبي لعلني أسمع قرع نعاله أو وقع عصاته، فلا يصدم سمعي إلا نشيج الوالدين، وآهات المحترقين، وأزيز صدور المعزّين، مضيت أتتنقل في الدار أبحث عن أبناء حبيبي وقرّة عيني كنت أعانق الواحد منهم فلا أكو ألصق صدري ب صدره من فيض محبتي لوالدي ووالدهم. كنت أعانق عبدالله وعبدالرحمن وأحمد وخالد، وأحياناً أعانق الواحد أكثر من مرة. أبحث عن إخواني المرافقين لسماحته لعلني أرى

صورته فيهم، وأجد ريح قميصه عندهم. الشيخ محمد الشويعر شحب لونه، وتهذج صوته، وتبيست شفتاه، وجف ريقه، وجرى دمه، الدكتور عبدالله الحكمي لم أعد أعرفه لتغير وجهه، وضمر جسمه، وشحوب لونه، لصدره أزيز، ولقلبه وشيح. الشيخ عبدالعزيز بن ناصر مرقه الحزن، وبذده الأسى الشيخ محمد الموسى أغلق باب مكتبه على نفسه وأرسل النفس على سجيتها، وأجرى سيل الدموع، حاولت أن أكلمه أو أسمع منه شيئاً فلم يستطع كلامي وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، الشيخ ابن عتيق ذلك الرجل الطيب يده على قلبه خشية أن يسقط، لحيته البيضاء اخضلت بالدموع عانقني في صمت، وقد صام عن الكلام فلم يكلم ذلك اليوم إنسياً، وإنما ترك الكلام لدموعه، وأطلق العنان لعبراته، هكذا كنت أتقل بينهم باحثاً عن طيب الحبيب، هناك الأخ حمداً يتأوه ويبكي، وهناك الأخ سعيد يئن ويشكي، ذهبت إلى الحارس والخادم والسائق والقهوجي أعزيهم ويعزوني، أذكى لهيب أحزانهم ويذكون لهيب أحزاني، أقيمت صلاة العشاء في مسجد سماحته فتقدمت للصلاة بالناس فتذكرت سماحته ومقامه خلف الإمام ونبراته الخاشعة، ودعواته الضارعة، ثم تذكرت أنه لن يصلي معنا أبداً، وأن الأنس معه انقضى، والغبطة به تلاشت، والحبيب غادر إلى غير عوده، وتذكرت بلالاً حين قام يؤذن بعد وفاة النبي ﷺ فحينما قال: أشهد أن محمداً رسول الله، خنفته العبرة، وانهمك بالبكاء، تذكرت أبا بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي، والصحابة جميعاً ﷺ تذكرت موقفهم في أول صلاة غاب عنهم فيها إمامهم وحبيبهم ﷺ، فخنقني العبرة، وانهمكت في البكاء، وضج المسجد بالنحيب، وامتلا الأفق بالأنين، وكدت أخرج على وجهي في المحراب ولم أستطع أن أكمل قراءتي وأتم صلاتي إلى بجهد جهيد.

□ وهكذا عشنا ذلك اليوم الرهيب، والمشهد الغريب. وظلت أفواج

المعزَّين تتوافد إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم كان العزاء في اليوم الثاني بمنزله بالطائف، والموقف نفسه يتكرر، والمشاهد ذاتها تتجدد، ثم انتقل العزاء في اليوم الثالث إلى منزله في الرياض، وما قيل هنا يقال هناك وربما أكثر من ذلك بكثير.

اللَّهُمَّ اغفر لشيخنا، اللَّهُمَّ اغفر ذنبه، وارفع درجته، واجمعنا به في جنات النعيم إنك على كل شيء قدير. . وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ودع الصبر محبٌ ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا رحم الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك وقتي فلکم بت أشكو قصر الوقت معك^(١)

* أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الملوك ورقة من سفر الخلود^(٢) :

يا أمة غاب عنها يدرها الساري وجف من أرضها سلسالها الجاري
طاشت عقولُ بنينا من فجيعتها بحادث يلهب الأحشاء بالنار
من هوله بت كالمطعون في كبدي بصارم مُفعم بالسُّم بتسار
هل مات من عاش نوراً نستضيء به في مدلج الأمر من هم وأخطار
هل مات من نرتوي من عذب مورده صفواً من العلم فيضاً دون إقتار؟
هل مات من ألبس التوحيد حُلته وهب للشرك تمزيقاً لأستار؟
هل مات من عاش سيفاً باتراً بترت صولاته كل تخريف لمهذار؟

(١) «إمام العصر» (ص ٢٠٩ - ٢١٩).

(٢) قصيدة للدكتور ناصر الزهراني من كتابه «إمام العصر» (ص ١٨ - ٢٤).

هل مات من نرتجي في صدق وثبته
 هل مات من عطر الدنيا بسيرته
 هل مات من يكفل الأيتام هل فقدوا
 وباذل الجاه والأموال ما بخلت
 ومن تأبى على الدنيا وزينتها
 هل غاب عنا نعيم العلم في زمن
 سفينة العلم تبكي موت قائدها
 عبدالعزيز بن باز نعمة نُقِشتْ
 هل من محب لدين الله ما ذرقت
 كل الإذاعات تشدو بالثناء له
 واسودت الصفحات البيض ناطقة
 ودوت في أقلام الورى درراً
 أنت الكفيف ولكن الفؤاد يرى
 أسديت للأمة الغراء ما عجزت
 حباً لنشر الهدى والخير في جلد
 في كل صقع له صوت وداعية
 لقصة العلم والتوحيد أودية
 مواعظ كرحيق الشهد شافية
 وحسن قصد لما يأتيه من عمل
 لطف وعطف ورفق بالبرية لا
 لكن إذا حرمة من دينه انتبهت
 بوئت عند ولادة الأمر منزلة

كبتاً لأصوات أعداء وأشرار؟
 ومسعد الضيف والملهوف والجار؟
 حنان كف لطيف اللمس مدرار؟
 يمناه عن رقد قصاد وزوار
 وللمحبين منه صدق إثثار
 تشكو البرية فيه قحط آبار
 وتشكي هول إدلاج وإبحار
 في كل قلب وفي أعماق أخيار
 عيناه في كل أرجاء وأمصار؟
 وكم يرى عبر شاشات وأقمار
 بفضله بين منشور وأشعار
 تبدي أفانين إجلال ومقدار
 ويبصر الحق صفواً دون أكرار
 عنه الملايين من أرباب أبصار
 وهممة تبلغ الجوزا وإصرار
 عبير أنفاسه في أفقها سار
 سلسالها في ربا أرجائنا جار
 تنير أعماق مهموم ومحتار
 أو دعوة واهتمامات وأوطار
 يشوبه شؤم تعنيف وإضرار
 رأيت في الذب عنها وثبة الضاري
 عظيمة لم ينلها أي ديار

مُجَلَّلٌ عند كلِّ الناس محترم
 وكم له الفضل بعد الله في من
 مساجد ورباطات وأندية
 تبكي الليالي التي قد كان يسعدها
 يبكي مُصْلَأُك والذكرُ الحكيم لما
 يبكي الصحيحان والمغني لما فقدوا
 يبكي الرياضان والتفسير منتحب
 يا قبر ويحك هل وارت من عُمرت
 وارت يا قبر من أحيا ضمائرنا
 يا قبر وارت جيلاً عاش في رجل
 من بعد أن كان للدنيا بأكملها
 كم بقعة تشتهي لو أنها سكن
 يا قلب كم فيك من هم ومن أرق
 تحطمت عزمات الأُنس في لغتي
 لو أن لي حيلةً بالموت ما طمعتُ
 لكنه أمرٌ مولانا وقدرته
 حملتُ جثمانه الزاكي على كتفي
 نثرت سيل دموعي فوق تربته
 واريته في فسؤادي قبل مدقنه
 روائع من صفات الطهر زاكية
 إن غبت يا شيخنا جسماً فما برحتُ
 أراك في كل حرف حين أقرؤه

مُقَدَّرٌ في بواديهم وحضار
 من وابل النفع أو من دفع أضرار
 ودور علم بكت من هم إقفار
 أزيزُ صدرك في ساعات أسحار
 عَمَرَت منه الليالي خير إعمار
 من حُسْن وصلٍ وتقدير وتكرار
 والفتح يبكي ويبكي نيل أوطار
 به قلوبٌ لأبرار وأطهار
 بفيض علم نقي النبع زخار
 ذي مبدأ مشرق الأصداء سيار
 طويته فجأة في بعض أشبار
 دافٍ لذاك الإمام الخاشع القاري
 ومن ظلام كثيف بعد أنوار
 وأجهشتُ بالبكاء المرُّ أغوار
 عينا في النوم قبل الأخذ بالثار
 ونحن نرضى بما يرضى لنا الباري
 وكنت أطمع لو أن طال مشواري
 ومضرم الحزن يكويني بإسعار
 بعثته في دمي في عمق أوتار
 تظل تُروى لأجيال وأدهار
 ذكراك تحيا معي في كل أطواري
 من سُنَّةٍ أو كتاب أو بأثار

أراك في الركن في البيت العتيق وفي
 أراك في زمزم في الخيف في طُرُقِ
 أراك في الحج في شهر الصيام وفي
 أراك في دمة الأيتام، في لغةٍ
 أراك في كل من يرجو لكربته
 أراك في كل من يبغي لمسألة
 أراك حين احتدام الأمر حين يُرى
 أراك حين انغلاق الفهم في عقدٍ
 أراك في مجلس الفتوى، وفي حلَّتِي
 أراك في كل منشورٍ وقافيةٍ
 أراك في مسجدي في كل ما نَظَرْتُ
 إن كان غيري له في ذكركم طرف
 فإن لي من عبير القول أطيبه
 أنا الذي صغت ألوان القريض وما
 نَظَمْتُ أزكى فنون القول في زمن
 بازية الدهر من أقوى الشهود على
 من قام يشدو بمدح في سماحته
 إلا أنا كان يوليني رعايته
 وحين أصدح بالرنان من خطبي
 يدري بأنني مُحِبُّ مرهفٍ ثَمَلٍ
 أنا الذي عشت في أعماق سيرته
 بذلت حبي وأوزاني وقافيتي

بياض إحرام حجاج وعمَّار
 إلى المشاعر، في إطلالة الغار
 قيام ليلٍ، وإمساكٍ، وإفطار
 مكلومة من ذوي فقر وإعسار
 كشفًا وفي كل محزون ومحتار
 فتوى، وفي كل توجيه وإنكار
 وجه الحوادث والأيام كالقار
 من المسائل، أو في فهم أسرار
 للعلم قد غاب عنها نجمك الساري
 أراك في دارك الثكلي، وفي داري
 عينا يبدو أمامي كيف تذكّر
 يزهو به من تراتيل وأخبار
 في حُبِّكم بين إعلان وإسرار
 فَتَنْتُ أَشَدُّ بها في كل مضمّار
 غيري يُغَنِّي لأحبابٍ وسُمَّار
 سبقي وصدقي وإجلالي وإكباري
 يابئ وينكر هذا أي إنكار
 ولا يصادر أشعاري وأفكاري
 يدعو ويثني بلفظٍ منه معطار
 وكان بالمنطوي في خافقي داري
 إذ كان أهل الهوى في تيهٍ مقفّار
 وسوف أحيا وفيًا دون إخفار

فإنني من دمي سَطَرْتُ أشعاري
يأتي بالفاظه من نحت أحجار
بما يصوغون من طين وفخار
فإن ألفاظ شعري طهر أبكار
رفيعة الذوق مسعداً لنظار
فإن دمعي سيبقى دائماً جاري
لن تنطفي من فؤادي جذوة النار
عن البراهين في تصديقه عار
بصدقه خير أصداء وآثار
رَبَّتْ روايه من وردٍ وأزهار
وأقتفى سيركم في كل مضمار
زكا فؤادي بتوجيه وتذكّار
كل الغشاوات عن قلبي وأنظاري
ولم يعد يغتويني أي تيار
جنيتُ بالسير فيه حلو أثمار
روحي بريّك في وردٍ وإصدار
وفزتُ من كل إعسار بإيسار
في الشيخ أَتَبَعْتُ ما أروي بأعذار
وكل ما قيل فيه عشر معشار
ومن يقابل إغزاراً بإنزار؟
من السماحة في جهرٍ وإضمار
غدت ضحية أيام وأقدار

إذا تُسَطَّرَ بالأحبار قافيةٌ
وليس من ينظم الدر البديع كمن
لا يستوي الذهب الإبريز أسبكه
إذا انتقوا من بنات الفكر ثيِّبها
آتي بها مثل ضوء البدر مزهرة
وإن بكوا ساعة ثم انقضى أثرٌ
ولو سقوني من الأنهار أجمعها
ماكان حبي لكم زعماً أردده
بل كان حياً نقياً رائعاً شهدت
عذباً فراتاً هنيئاً سائغاً غدقاً
وعشت أقبس نوراً من هدايتكم
تعلّمتُ راحتي بذل الجميل وكم
وبُدِدَتْ ظلمات الدرب وانقشعتُ
وفزتُ بالمنهج الأسمى قلذتُ به
نهج النبوة ما أركى مشاربه
غمرتني بالرضى والحب وازدهرتُ
نهلتُ من نهرك الرِّقراق في نهمٍ
ولو كتبتُ بدمع العين ملحمةً
من ذا يوفّي إمام الجيل منزله
من يرتقي لسهيل في منازل
عشنا مع العلم والإيمان في ظللٍ
وكم نسجنا من الآمال أرديةً

وكم ظفرنا أكاليلاً ماردة
 كم خيم الألم الفتاك في جسد
 يا من يباهي بحب الشيخ هل جُمِعَتْ
 وهل تَعَلَّمَتْ منه في تَأْلُفِهِ
 أم أنت تبكي كما تبكي العجوز بلا
 فانهض لرفعة دين الله مقتدياً
 تأس بالمصطفى الهادي وصحبته
 نستودع الله من عشنا نُجَلِّهِ
 رحلت عن هذه الدنيا التي لَعِبَتْ
 يا رب يا من له تشدو ضمائرنا
 ومن إذا ضاقت الدنيا بما رَحِبَتْ
 اخلف على أمة الإسلام في عِلْمٍ
 ولم نجد في البرايا من يضارعه
 واجعل جنان الرضى والخلد منزله
 فاجتثها من ربانا هول إعصار
 واحلولكت من دروب بعد إسفار
 قواك للسير في منهاج أبرار
 عن حَمَأة الذنب أو لوثات أوزار
 بذلٍ وفضلٍ وتحيا خلف أسوار
 به فقد كان يحذو حذو مختار
 وانظر لأخبار خباب وعمار
 ويا إمام الهدى في ذمة الباري
 بنا إلى جود رحمن وغفار
 ويا مُقَدَّرَ آجالٍ وأعمار
 نلوذ منه بِرُكْنٍ غير منهار
 علامة طيب الآثار مغوار
 علماً وحلماً وجوداً منذ أعصار
 ما بين حور وولدان وأنهار

وكم ظفرنا أكاليلاً ماردة
 كم خيم الألم الفتاك في جسد
 يا من يباهي بحب الشيخ هل جُمِعَتْ
 وهل تَعَلَّمَتْ منه في تَأْلُفِهِ
 أم أنت تبكي كما تبكي العجوز بلا
 فانهض لرفعة دين الله مقتدياً
 تأس بالمصطفى الهادي وصحبته
 نستودع الله من عشنا نُجَلِّهِ
 رحلت عن هذه الدنيا التي لَعِبَتْ
 يا رب يا من له تشدو ضمائرنا
 ومن إذا ضاقت الدنيا بما رَحِبَتْ
 اخلف على أمة الإسلام في عِلْمٍ
 ولم نجد في البرايا من يضارعه
 واجعل جنان الرضى والخلد منزله
